رِسالَةٌ
فِي بَيانِ مَعْنَى الإِسْلامِ
مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

عَلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ الأَثَرِ

تَألِيفُ
أَبِي حَمْزَةَ الأَفْغانِي





﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾
(النساء: ٥٩)

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾
(الشورى: ١٠)

إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ
(حديثُ النَبيِّ ﷺ، رواه البخاريّ هكذا في بدايةِ كتابِه الجامعِ الصحيح)

وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الرَّحمن ابْنُ أَبِي حاتِمِ الرَّازي – رحمه الله ورحِم أئمَّةَ المسلمين:

وَسَمِعْتُ أَبِي وَأَبَا زُرْعَةَ يَأْمُرَانِ بِهِجْرَانِ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالْبِدَعِ، يُغَلِّظَانِ فِي ذَلِكَ أَشَدَّ التَّغْلِيظِ، وَيُنْكِرَانِ وَضْعَ الْكُتُبِ بِرَأْيٍ فِي غَيْرِ آثَارٍ، وَيَنْهَيَانِ عَنْ مُجَالَسَةِ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالنَّظَرِ فِي كُتُبِ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَيَقُولَانِ: لَا يُفْلِحُ صَاحِبُ كَلَامٍ أَبَدًا. قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ: «وَبِهِ أَقُولُ أَنَا»

[شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة - أبو القاسم هبة الله اللالكائي]

فهرس



المقدّمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد،

هذه رسالةٌ رُمْت فيها بيانَ معنى الإسلام، مقتصراً على نصوصِ كتابِ اللهِ وسنّةِ رسولِه ﷺ وما يُعينُ على فهمِهما مِن كلامِ السلفِ رَحِمَهُمُ اللهُ تعالى.

سَيَظهرُ مِن تلك النصوصِ جَلِيّاً أنّ الإسلام هو عِبادةُ اللهِ وحدَه وتركُ الإشراكِ به في شيءٍ مِن خصائِصِه سُبحانه وتعالى، في رُبُوبِيَّتِهِ وأسمائِهِ وصِفاتِه وأُلوهِيَّتِه. وسَيظهَر أنّه ملّةُ إبراهيمَ الحنيفيّةُ وأنّه دينُ جميعِ الأنبياءِ والرسلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأنّه الإيمانُ بالله والكُفْرُ بالطاغُوت.

وقد الْتَبسَ معنى الإسلامِ اليومَ على كثيرٍ مِن الناس فكان مِنهم مَن غَلا وَرَمَى المسلمَ بالكفرِ والخروجِ مِن الملَّةِ وآخرونَ يُدخِلونَ في الإسلامِ مَن لَم يَتحقَّقْ فيهِ معناه.

فكان المقصودُ مِن ذِكر الأدلَّةِ في هذا الكتاب أن يَتَّضحَ بها أنَّ مَن عُلِمَ مِنه أنَّه قد حقَّقَ معنى الإسلام ولم يقَعْ مِنه ما يناقِضُه مُناقضةً تامّةً أنَّه المسلمُ، له ما لِلمسلِمِ وعليه ما على المسلم.

ويَتَّضحُ بها على المُقابلِ مِن ذلك أنَّ مَن أشركَ بالله الشركَ الأكبرِ وتحقَّقتْ فيه حقيقتُه لا يكونُ مسلماً بحالٍ، هذا في غيرِ الشركِ الأصغر والمحتمِلاتِ مِن الأقوال والأفعال.

ولا فرقَ في هذا الأمر بينَ مَن ينتسبُ إلى الإسلامِ مَعَ وقوعِ الشِركِ الأكبر مِنه وبيْنَ غيرِه مِنَ المشركين، إذ كيفَ يُحقِّق (لا إله إلّا الله) من اتَّخذَ إلهينِ وجعَل للهِ شركاءَ في العبادةِ؟

فالمشركُ – أيَّا كان – تنتَفِي عنه أربعةُ أمورٍ:

(١) حقيقةُ الإسلام

(٢) اسمُ الإسلام

(٣) أحكامُ المسلمِينَ في الدنيا

(٤) أحكامُ المسلمِينَ في الآخرة.

وهذا أصلٌ في معنى الإسلام قد التَبَس على كثير من الناس في هذا الزمان، وَبِسببِهِ قَد انتشرَت اليَومَ مشكلةُ إثباتِ الإسلامِ لأصنافٍ من المشركين انتشاراً واسعاً إلى درجةِ أن يُتَّهَمَ بالغلوِّ مَن حَكَم عليهم بما أوْجبَه الكتابُ والسنَّة.

والناس في مخالَفتِهم لهذا الأصلِ على أقوالٍ، فمِنْهم مَن أثبَتَ الإسلامَ لِبعضِ المشركينَ مِن كلِّ وجهٍ، وَمِنهُم مَن نفَى عنْهُم بَعضَ الأحكامِ دون بعضٍ.

فَعَليْنا أن نُراجعَ هذا الأصلَ مِن مصادرِهِ وأن نُحكِمَه إحكاماً. وأمّا ما يتفرّعُ عن هذا الأصلِ مِن مسائلَ وأحوالٍ خاصَّةٍ فَيَنبغِي أن يُتكلَّمَ فيه مُنفرداً بَعدَ إحكامِ الأصلِ إن شاء اللهُ تعالى.

فصل: أَفْضَلُ عِلْمٍ هُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ ومَعْرِفَةُ تَوحِيدِهِ وَهُوَ أَعْظمُ ما يُسْعَى فِي طَلَبِهِ

وهذا العلمُ، العلمُ بالله تَعالَى وتوحيدِه، هو أَسْمَى ما يَطلُبُه كلُّ طالبٍ وهُوَ الغايةُ مِن خلقِ بَنِي آدمَ، وهو أوَّلُ ما يُدْعَى إِلَيهِ الإِنْسانُ.

كما رَوَى البخاريُّ في الصحيح:

> أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى اليَمَنِ، قَالَ: «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ ...

وفي روايةٍ لَه:

> فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى ...

وذَكَرَ أبو نعيمٍ في الحِلْيَة:

> وَقَالَ سُفْيَانُ: «أَفْضَلُ الْعِلْمِ الْعِلْمُ بِاللهِ، وَالْعِلْمُ بِأَمْرِ اللهِ، فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ عَالِمًا بِاللهِ، وَعَالِمًا بِأَمْرِ اللهِ فَقَدْ بَلَغَ، وَلَمْ تَصِلْ إِلَى الْعِبَادِ نِعْمَةٌ أَفْضَلُ مِنَ الْعِلْمِ بِاللهِ، وَالْعِلْمِ بِأَمْرِ اللهِ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِمْ عُقُوبَةٌ أَشَدُّ مِنَ الْجَهْلِ بِاللهِ، وَالْجَهْلِ بِأَمْرِ اللهِ»

> قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: «خَرَجَ أَهْلُ الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَذُوقُوا أَطْيَبَ شَيْءٍ فِيهَا» قَالُوا: وَمَا هُوَ يَا أَبَا يَحْيَى؟ قَالَ: «مَعْرِفَةُ اللهِ تَعَالَى»

> سَمِعْتُ ابْنَ الْمُبَارَكِ، يَقُولُ: «أَهْلُ الدُّنْيَا خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يَتَطَعَّمُوا أَطْيَبَ مَا فِيهَا»، قِيلَ لَهُ: وَمَا أَطْيَبُ مَا فِيهَا؟ قَالَ: «الْمَعْرِفَةُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ»

وهذا العِلمُ هو الذي يُورثُ في القلبِ الصادقِ محبَّةَ اللهِ والخوفَ مِنه سُبحانه.

كما في الزُهدِ والرَقائقِ عن عبدِ اللهِ بنِ المباركِ قال:

> أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ قَالَ: كَتَبَ إِلَيَّ حَجَّاجُ بْنُ الْفُرَافِصَةِ قَالَ: قَالَ بُدَيْلٌ: «مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ أَحَبَّهُ، وَمَنْ عَرَفَ الدُّنْيَا زَهِدَ فِيهَا، ...

ورَوَى محمَّد بنُ نصرٍ المرْوَزِيُّ في تَعظيمِ قدرِ الصلاة، قال:

> سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ عَاصِمٍ الْأَنْطَاكِيَّ، يَقُولُ: «مَنْ كَانَ بِاللَّهِ أَعْرَفَ كَانَ مِنَ اللَّهِ أَخْوَفَ»، قَالَ أَحْمَدُ: صَدَقَ وَاللَّهِ.

فَلْتَعْلُ هِمَّةُ مَنْ أرادَ الخيرَ لِنَفسِهِ أنْ يَسْعَى لِفَهمِ هذا الأمرِ العظيم.

واللهَ أسألُ الإعانةَ وإيّاه أدعو أن يوفِّقَني لِما يُحبُّهُ ويَرضاه وأن يَجْعلَ هذا الكتابَ نافعاً لعبادِهِ ونيّاتِنا خالصةً لوجهِهِ الكريم، آمين.

فصل: الآثارُ المَنْقُولَة فِي هَذا الكِتابِ وَرِوايَةُ الآثارِ بَيْنَ المُتَقَدِّمِينَ وَالمُتَأَخِّرِين

لَمّا كان مضمونُ هذا الكتابِ والمقصودُ مِنه بيانَ أهمِّ شيءٍ في دينِ اللهِ، وهو الإسلامُ نفسُه، مَعْناه وما يَنبَنِي عليه، يَنبَغِي أنْ لا يكونَ هناك شَكٌّ أنَّ النصوصَ الدالَّة على أصلِ الإسلامِ مُتوَفِّرَةٌ بِكَثرةٍ ومُتعاضِدةٌ، معرُوفةٌ عند أهلِ الإسلامِ الأوائلِ، تَلَقّاها نُقَّادُ الحديثِ بِالقَبولِ وعَرفوا كَونَها حُجّةً، فضلاً عَمّا في كتابِ الله، فهو الأصلُ، وفِيه البيانُ الواضحُ المُبِين.

فَلا يَتوهَّمَنَّ قارئٌ لو وجَد في شيءٍ مِن الآثارِ الواردةِ فِي هذا الكتابِ مِن أحاديثَ وأقوالٍ للسَّلَفِ في معانِي القرآنِ ما تُكُلِّمَ في شيءٍ مِن إسنادِه حَسَب صِناعةِ المحدِّثِينَ، أنَّ هذا قد يُؤَدِّي إلى تغْيِيرٍ في فهْمِ أصولِ هذا الدينِ، هذا أمرٌ مُستحِيل، ولا يظنُّه إلّا مَن بلَغ الجهلُ فِيه أَوْجَهُ أوْ كان مُريداً لِلشَّرِّ.

هذا إلى جانبِ ما يَحْسُنُ الإشارةُ إليه مِن أنَّ السلفَ الأوائلَ عندَ احتجاجِهم بالأحاديثِ والآثارِ لم يَنْظروا إلى قوَّةِ الإسنادِ وخُلُوِّهِ مِن العِلَلِ المضَعِّفَةِ فَحَسْبُ، بل ضَمُّوا إلى ذلك قرائنَ عديدةً عرَفوها وأتقَنْوها ويَجْهلُها مَن يتكلَّفُ ما يُزْعَمُ مِن التصحيحِ والتحقيقِ في عصرِنا هذا.

وكما رُوِيَ عن مالك رحمه الله تعالى:

> ... قَالَ مَالِكٌ: كَانَ وَهْبُ بْنُ كَيْسَانَ يَقْعُدُ إِلَيْنَا، ثُمَّ لا يَقُومُ أَبَدًا حَتَّى يَقُولَ لَنَا إِنَّهُ لا يُصْلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ إِلا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا، قُلْتُ لَهُ: يُرِيدُ مَاذَا؟ قَالَ يُرِيدُ التُّقَى.
>
> (مسند الموطأ لأبي القاسم عبد الرحمن الجَوْهَرِيِّ المالكي)

وهو أمر لا شكَّ فيه البتَّة أنّ آخرَ هذه الأمَّةِ لا يُصلحُها إلا ما أصلَح أوَّلها عموماً في كلّ ما يتعلَّق بِدينِهم مِن التُّقى ومِن التمسُّك بالكتاب والسنَّة ومنهجِ السَّلف في تعاملهم

بالأسانيد. فمَن ضلَّ عن منهج المتقدّمين فأنَّى له أن يهتَدِيَ إلى منهجٍ سليم، ويَفهمُ ذلك العاقلُ المريدُ الرجوعَ إلى مصادرِ هذا الدينِ ليَنتهيَ إلى فهمٍ قويم.

وَبَدا أكثرَ فأكثرَ أنَّ مِمَّا لا يفهمُه أصحابُ تَصحيحِ السنّةِ المزعومِ أوْ يتَجاهلُهُ بعضُهم أنَّ أَئِمَّةَ السَّلفِ فرَّقوا بينَ الأسانيدِ ولمْ يَجعلُوها حكماً واحداً، فَعامَلوا المأثورَ في التفسيرِ غيرَ معاملةِ ما رُوِيَ مِن الأَخْبارِ في الحلالِ والحرامِ، وهكذا. وهذا أمرٌ جَليٌّ متكرِّرٌ في كلامِهم، لا يَستريبُ فيهِ مَن عرَفَ أقوالَهم.

فإذا احتجَّ بالنصِّ بعضُ النقَّادِ مِن علماءِ السَّلفِ بعدَ معرفةٍ شاملةٍ لكلِّ ما يُحيطُ بِه مِن القرائنِ واطِّلاعِهم على ما دَوَّنَه أهلُ العلمِ في عُصُورهم في صَحائِفِهم وتَداوَلُوه بينَهم ممّا لَمْ يبلُغْ إلينا كلُّه، فكيفَ يُعقِّبُ قولَهم في هذه الأزمنةِ المتأخِّرة مَن يَصْطادُ في الماءِ العَكِرِ قاصراً مُقْتصِراً على ما بينَ يَديْهِ مِن الكُتُبِ؟ هيهاتَ هيهاتَ، هذا أمرٌ لا يكون.

فَكيفَ إذا تلقَّوا الخبرَ بالقَبولِ وأجمَعُوا على الاحْتجاجِ بِه عندهم؟ وَكيفَ إذا كانَ الشَيْءُ مِن أهمِّ أمورِ الدينِ التي لا يَستريبُ فيها مَن شَمَّ رائِحتَه فَضلاً عَمَّنْ عَرَف حقيقتَه.

فإذا علِمتَ هذا أيُّها القارئُ تَبيّنَ لكَ أنَّ ما ورَدَ في هذه الأمورِ الهامَّةِ ممَّا أَجمَع على مَعناه المسلِمونَ، لا سبيلَ لِدفْعِه بأيِّ وجهٍ من الوجوه. كيف، إن كان الأمر كما رواه ابن أبي حاتم وغيره في التفسير، فقال:

> ... عَنِ الرَّبِيعِ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، قَوْلُهُ: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} [يوسف: ٤٠] قَالَ: «أُسِّسَ الدِّينُ عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»

فإخلاصُ العبادةِ للهِ الواحدِ أَساسُ الملّة، فأنَّى لِدَفعِهِ مِن سبيل؟

وَلْيَعْلَمِ القارئُ أنَّ بعضَ مَن اشتَغَل بِروايَةِ الحديثِ مِمَّن رَوَوا الأخبارَ بأسانيدِها في عَصرِ الروايةِ وَقَعتْ منهم أو تُذْكَرُ عَنْهم مخالَفاتٌ لِما كان عليه السَّلَفُ في العقيدة، وقَد كثُرَ ذلك في القَرنِ الخامس، معَ وقوعِه قبلَ ذلك أيضاً. فمَن رأَى مِن ذلك شيئاً في هذا الكتابِ

فلْيَعلَمْ أنَّه مِن باب الرِّواية فَحَسب، وأن ليس شيءٌ منه على نحوِ تأصيلِ المسألةِ بَلْ إنَّما هو على وجهِ التأييدِ والتَّأكِيد، وقد علِمتَ ممَّا سبَق أنَّ ما يُقرَّرُ في هذا الكتابِ مِن المسائلِ هو أساسُ هذا الدِّين وهو لا يَفتقِرُ في تَأسيسِه إلى أخبارٍ فِيها كلام. ويُلحَقُ بِما ذُكِرَ هاهنا ما قد يُنْقَلَ عن بَعضِهِم لِتَوضيحِ معانِي العربيَّةِ أو لإِثْباتِ أنَّ سائرَ مَن اشْتغَلَ بِالعِلمِ في تلك الأزمِنَةِ قرَّرَ مثلَ ما يُذكَرُ في هذا الكتابِ مِن بيانِ مَعنَى الإسلام.

وبه يَعلمُ القارئُ أنّه لو ذكِر هنا مَن كان في اعتقادِه كلامٌ فلَيس مجرَّدُ ذكرِه في معنَى تعديلِه وتزكيَتِه، فلْيُتنبَّه. هذا مع ملاحظة أن ليس كلُّ مَن تُكلِّمَ فيه يَصحُّ هذا الكلام في حقِّهِ ويَثبُتُ عليه، فهذا أمرٌ يحتاجُ إلى تَثبُّتٍ وتَحقِيقٍ وعامَّةُ النَّاسِ لا يتنبهُون إلى ذلك.

وفي آخرِ هذه المقدِّمة ما بقِي إلّا أن أشكُرَ اللّهَ تَعالى على إتمامِ هذا الكتابِ ثمَّ مَن أعانني على إنجازِه من الأهلِ والإخوانِ، أحسنَ الله إليهم وجزاهم الله خيرا. ومَن استفدتُ مِنه عِلْماً أفادني في هذا الكتاب أو غيرِه ممَّن تعلَّمتُ مِنهم، فأحسنَ الله إليهم كما أحسَنوا إليَّ، ومَن كان فيه من هؤلاء ضلالةٌ فأسأل الله أن يَهدِيَني وإيَّاهم إلى الصوابِ وإلى الصراط المستقيم. آمين.

... هذا، واللهُ أعلمُ، وبالله تعالى التَّوفيقُ والسَّداد.

(باب) مَعْنَى كَلِمَةِ الإسْلام وأَهَمِّيَّةُ هَذا المَعْنَى وَبَيانُ النَّبِيِّ ﷺ لَه

إنّ الله تعالى سمّى هذا الدين الإسلام، ومجرّد هذه التسمية لا بدّ أن تكون لها حكمة عظيمة، إذ جعَل كلمةَ (الإسلام) الاسمَ الشامل للملّة، وكلّ اسم استعمله الله تعالى لم يستعمله إلا لحكمة بالغة، فكيف بهذا الاسم الذي سُمّي به الدين كلّه؟ فعُلم بذلك أهمِّيَّة معرفةِ معنى لفظِ الإسلام للمسلم.

فصل: وَصْفُ النَّبيِّ ﷺ الإسْلامَ بأنّه إفْرادُ اللهِ بِالعِبادَةِ وَتَرْكُ الشِّرْك

- أخرج البخاري عن أبي هريرة حديث جبريل، وفيه أنّ رسول الله ﷺ قال:

> الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ ...

فالإسلام هو عبادة الله وعدم الإشراك به. فمن لم يعبد الله كان مستكبراً ومن عبده وعبد معه غيره كان مشركاً غيرَ مسلم. ومعلوم أنّ ما ذُكر في الحديث بعد ذلك من الشرائع مع عِظم شأنها فإنّها تنبني على التوحيد كلّها. فمن صلّى وصام وحجّ مع أنّه لم يحقّق التوحيد لا يقبل منه شيء من الأعمال.

وفي المقابل فإنَّ مَن جهل الصلاة لعدم بلوغ النصّ في وجوبها إليه كان مسلماً معذوراً بجهله، بخلاف التوحيد، إذ كيف يكون محقِّقاً للإسلام من جهل الإسلام؟

ومعلوم في بداهة العقول أنّ إسلام المَرْءِ يتطلّب قصداً ونيّةً، وأنّى لمن جهل شيئاً أن يحقّقه قاصداً إليه؟

• وفي حديث عبد الله بن عمر عن أبيه عند مسلم:

> ... وَقَالَ يَا محمّد أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ محمّدا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا قَالَ صَدَقْتَ ...

فإنّه ﷺ لم يُرِدْ أن تشهد أن لا معبود حقٌّ إلا الله وإن كنت تعبد اللّات والعزّى وقتَ شهادتِك واستمررْت على عبادة الأوثان، جهلاً منك أنّ هذا ينافي معنى الشهادة. وهل يَفهم هذا المعنى من الحديث المذكور إلّا من جهل الإسلام بِنفسِه؟

فصل: إسلامُ عَليٍّ ﷺ وَأَنَّ الإسلامَ هُوَ تَوحِيدُ العِبادَةِ والبَراءَةُ مِن الأَوْثانِ والكُفْرُ بِها

وفي سيرة محمد بن إسحاق المتوفّى سنة ١٥١هـ:

> ثمّ إنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ جاء بعد ذلك بِيَومينِ فوجدَهما يُصلِّيان، فقال عليٌّ: ما هذا يا محمّد؟ فقال النّبيُّ ﷺ: دينُ الله الذي اصطفى لنفسِه وبعث به رسلَه، فأدعوك إلى الله وحدَه، وإلى عبادتِه، وكفرٍ باللّاتِ والعَزّى،
>
> فقال له عليٌّ: هذا أمرٌ لم أسمعْ به قبلَ اليومِ فَلستُ بقاضٍ أمراً حتى أحدِّثَ أبا طالبٍ، فكرِه رسولُ الله ﷺ أن يفشي عليه سرّه قبلَ أن يستعلن أمره، فقال له: يا عليُّ إذا لم تُسلم فاكتُم،
>
> فمكَث عليٌّ تِلك اللّيلةَ، ثمَّ إنّ اللهَ أوقعَ في قلبِ عليٍّ الإسلامَ، فأصبحَ غادياً إلى رسول الله ﷺ حتَّى جاءه فقال: ما عرضتَ عليَّ يا محمّد؟

> فقالَ له رسولُ الله ﷺ: تشهَدُ ألا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وتكفُرُ باللّاتِ والعزّى، وتبرأُ مِن الأنداد، ففَعَل عليٌّ وأسلَمَ، ومكَث عليٌّ يأتِيه على خوفٍ مِن أبي طالب، وكتَم عليٌّ إسلامَه ولم يظهَر به.

فسمّى عبادة الله وحده والكفر بالأصنام (دين الله) و(الإسلام).

فصل: الأمرُ بِتَوحيدِ العِبادةِ فِي القُرآنِ وقَولُه تَعالى ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ وَهُوَ أَوَّلُ أَمْرٍ في كِتابِ الله

قد رأيتَ أنَّ النبيَّ ﷺ بيَّن معنى الإسلام بتوحيدِ العبادة، وأمّا كتاب الله تعالى فإنّه يدور حول بيانِ التوحيد كلِّه، إذ هو رسالةُ الأنبياء وسبب إرسالهم وإنزالِ كتبِهم عليهم السلام، وسيأتي بيانُ ذلك مفصّلاً.

قال الله تعالى ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ...﴾ (الإسراء: ٢٣)

ومثله قولُه تعالى في سورة البقرة، وهو أوّلُ أمرٍ في القرآن: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)﴾

فلا شكَّ أنّ شهادة الإسلام طالبت المشركينَ بتوحيدِ العبادة لله تعالى، لذا روى ابن أبي حاتم في التفسير، وذكَر هذا الخبر في مواضعَ مِن تفسيرِه، قال:

> عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ} [البقرة: ٢١] «أَيْ وَحِّدُوا رَبَّكُمْ»

ولذلك قال الطبريّ في معنى العبادة عموماً وفي الآية خصوصاً:

> وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِيمَا رُوِيَ لَنَا عَنْهُ يَقُولُ فِي ذَلِكَ نَظِيرَ مَا قُلْنَا فِيهِ، غَيْرَ أَنَّهُ ذُكِرَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي مَعْنَى: {اعْبُدُوا رَبَّكُمُ} [البقرة: ٢١] وَحِّدُوا رَبَّكُمْ.

وَقَدْ دَلَّلْنَا فِيمَا مَضَى مِنْ كِتَابِنَا هَذَا عَلَى أَنَّ مَعْنَى الْعِبَادَةِ الْخُضُوعُ لِلَّهِ بِالطَّاعَةِ وَالتَّذَلُّلُ لَهُ بِالِاسْتِكَانَةِ. وَالَّذِي أَرَادَ ابْنُ عَبَّاسٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِقَوْلِهِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: {اعْبُدُوا رَبَّكُمُ} [البقرة: ٢١] وَحِّدُوهُ: أَيْ أَفْرِدُوا الطَّاعَةَ وَالْعِبَادَةَ لِرَبِّكُمْ دُونَ سَائِرِ خَلْقِهِ.

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حُمَيْدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا سَلَمَةُ، عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي مُحَمَّدٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ أَوْ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «قَالَ اللَّهُ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ} [البقرة: ٢١] لِلْفَرِيقَيْنِ جَمِيعًا مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، أَيْ وَحِّدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ»

فصل: الأَمرُ بِتَوحيدِ العِبادةِ فِي قَولِهِ تَعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾

قال الطبريُّ في التفسير:

وَتَأْوِيلُ قَوْلِهِ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [الفاتحة: ٥] لَكَ اللَّهُمَّ نَخْشَعُ وَنَذِلُّ وَنَسْتَكِينُ إِقْرَارًا لَكَ يَا رَبَّنَا بِالرُّبُوبِيَّةِ لَا لِغَيْرِكَ.

كَمَا حَدَّثَنَا ... عَنِ الضَّحَّاكِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ جِبْرِيلُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ:

«قُلْ يَا مُحَمَّدُ: إِيَّاكَ نَعْبُدُ، إِيَّاكَ نُوَحِّدُ وَنَخَافُ وَنَرْجُو يَا رَبَّنَا لَا غَيْرَكَ»

وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِمَعْنَى مَا قُلْنَا، وَإِنَّمَا اخْتَرْنَا الْبَيَانَ عَنْ تَأْوِيلِهِ بِأَنَّهُ بِمَعْنَى نَخْشَعُ وَنَذِلُّ وَنَسْتَكِينُ، دُونَ الْبَيَانِ عَنْهُ بِأَنَّهُ بِمَعْنَى نَرْجُو وَنَخَافُ، وَإِنْ كَانَ الرَّجَاءُ وَالْخَوْفُ لَا يَكُونَانِ إِلَّا مَعَ ذِلَّةٍ؛ لِأَنَّ الْعُبُودِيَّةَ عِنْدَ جَمِيعِ الْعَرَبِ أَصْلُهَا الذِّلَّةُ، وَأَنَّهَا تُسَمِّي الطَّرِيقَ الْمُذَلَّلَ الَّذِي قَدْ وَطِئَتْهُ الْأَقْدَامُ وَذَلَّلَتْهُ السَّابِلَةُ: مُعَبَّدًا. وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ طَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ:

تُبَارِي عِتَاقًا نَاجِيَاتٍ وَأَتْبَعَتْ ... وَظِيفًا وَظِيفًا فَوْقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ

يَعْنِي بِالْمَوْرِ: الطَّرِيقِ، وَبِالْمُعَبَّدِ: الْمُذَلَّلِ الْمَوْطُوءِ وَمِنْ ذَلِكَ قِيلَ لِلْبَعِيرِ الْمُذَلَّلِ بِالرُّكُوبِ فِي الْحَوَائِجِ: مُعَبَّدٌ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْعَبْدُ عَبْدًا لِذِلَّتِهِ لِمَوْلَاهُ. وَالشَّوَاهِدُ مِنْ أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَكَلَامِهَا عَلَى ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى، وَفِيمَا ذَكَرْنَاهُ كِفَايَةٌ لِمَنْ وُفِّقَ لِفَهْمِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

(باب) مَعْنَى الإِلهِ وَمَعْنَى شَهادَةِ الإِسْلام

فصل: فِي مَعْنَى الإِلهِ وشَهادةِ الإِسْلامِ وأَنَّ مُشْرِكِي قُرَيشٍ كانُوا أَعْلَمَ بِهِ مِن كثيرٍ مِنَ المنتسبينَ إلى الإسلامِ اليَوْمَ

معنى لا إله إلّا الله هو **(لا معبود حقّ إلا الله)**[1]، لأنّ الإله هو المعبود.

جاء في تفسير الطبري قوله في بيان معنى الإله في لغة العرب:

وَأَمَّا تَأْوِيلُ قَوْلِ اللَّهِ: «اللَّهِ»، فَإِنَّهُ عَلَى مَعْنَى مَا رُوِيَ لَنَا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ الَّذِي يَأْلَهُهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَيَعْبُدُهُ كُلُّ خَلْقٍ.

وَذَلِكَ أَنَّ أَبَا كُرَيْبٍ حَدَّثَنَا قَالُ: حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ عُمَارَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو رَوْقٍ، عَنِ الضَّحَّاكِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «اللَّهُ ذُو الْأُلُوهِيَّةِ وَالْمَعْبُودِيَّةِ عَلَى خَلْقِهِ أَجْمَعِينَ»

فَإِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: فَهَلْ لِذَلِكَ فِي فَعَلَ وَيَفْعَلُ أَصْلٌ كَانَ مِنْهُ بِنَاءُ هَذَا الِاسْمِ؟ قِيلَ: أَمَّا سَمَاعًا مِنَ الْعَرَبِ فَلَا، وَلَكِنِ اسْتِدْلَالًا. فَإِنْ قَالَ: وَمَا دَلَّ عَلَى أَنَّ الْأُلُوهِيَّةَ هِيَ الْعِبَادَةُ،

[1] أو **(لا معبود بحقّ إلا الله)** على تفصيل ما يذكره أهل العلم عند الكلام على إعراب الشهادة ومعناها المفصّل وتقدير المحذوف منها، لكنّ كلّ ذلك في معنى واحد.

وَأَنَّ الْإِلَهَ هُوَ الْمَعْبُودُ، وَأَنَّ لَهُ أَصْلًا فِي فَعَلَ وَيَفْعَلُ؟ قِيلَ: لَا تَمَانُعَ بَيْنَ الْعَرَبِ فِي الْحُكْمِ لِقَوْلِ الْقَائِلِ يَصِفُ رَجُلًا بِعِبَادَةٍ وَيَطْلُبُ مِمَّا عِنْدَ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: تَأَلَّهَ فُلَانٌ بِالصِّحَّةِ وَلَا خِلَافَ. وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ رُؤْبَةَ بْنِ الْعَجَّاجِ:

لِلَّهِ دَرُّ الْغَانِيَاتِ الْمُدَّهِ ... سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأَلُّهِي

يَعْنِي: مِنْ تَعَبُّدِي وَطَلَبِي اللَّهَ بِعَمَلٍ. وَلَا شَكَّ أَنَّ التَّأَلُّهَ التَّفَعُّلُ مِنْ: أَلَهَ يَأْلَهُ، وَأَنَّ مَعْنَى أَلَهَ إِذَا نُطِقَ بِهِ: عَبَدَ اللَّهَ.

وَقَدْ جَاءَ مِنْهُ مَصْدَرٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَرَبَ قَدْ نَطَقَتْ مِنْهُ بِفَعَلَ يَفْعُلُ بِغَيْرِ زِيَادَةٍ وَذَلِكَ مَا حَدَّثَنَا بِهِ، سُفْيَانُ بْنُ وَكِيعٍ، قَالَ حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ نَافِعِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَرَأَ: (وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ) قَالَ: «عِبَادَتَكَ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ كَانَ يُعْبَدُ وَلَا يَعْبُدُ»

وَحَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْحَسَنِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: (وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ) قَالَ: «إِنَّمَا كَانَ فِرْعَوْنُ يُعْبَدُ وَلَا يَعْبُدُ. وَكَذَلِكَ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَقْرَؤُهَا وَمُجَاهِدٌ»

وَحَدَّثَنَا الْقَاسِمُ، قَالَ: حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ دَاوُدَ، قَالَ: أَخْبَرَنِي حَجَّاجٌ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَوْلَهُ: (وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ) قَالَ: «وَعِبَادَتَكَ» وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِلَاهَةَ عَلَى مَا فَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ مَصْدَرٌ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ أَلَهَ اللَّهَ فُلَانٌ إِلَاهَةً، كَمَا يُقَالُ: عَبَدَ اللَّهَ فُلَانٌ عِبَادَةً، وَعَبَرَ الرُّؤْيَا عِبَارَةً. فَقَدْ بَيَّنَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ هَذَا أَنَّ أَلَهَ: عَبَدَ، وَأَنَّ الْإِلَاهَةَ مَصْدَرُهُ.

وقد أساء كثير من الناس فهم معنى الإله والشهادة، وإنّما ذلك لكثرة انشغالهم بالفلسفة المذمومة عن فهم كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ على مراد الله وعن أقوال سلف هذه الأمة، وقد رأيتَ ما رُوِي عن الصحابة رضي الله عنهم وسيأتي مزيد.

وحتى مَن كان قليل الفهم والتتبّع لمعاني ألفاظ القرآن يعلمُ أنّ معنى الإله هو المعبود وليس الخالق أو القادر على الاختراع فقط كما ظنّه هؤلاء، والأمثلة الآتية تبيِّن هذا.

فصل: أَمْرُ الأنبياءِ أقْوامَهم بِتَوحِيدِ العِبادةِ وَفَهْمُ المُشْرِكينَ لِهذا الخِطاب

• قال تعالى:

﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)﴾ (ص)

هذا قول المشركين، وليس قصدهم أنّ محمّداً جعل الخالقِين خالقاً واحداً.

قال الطبري مبيّناً:

> يَقُولُ: وَقَالَ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ الَّذِينَ قَالُوا: مُحَمَّدٌ سَاحِرٌ كَذَّابٌ: أَجَعَلَ مُحَمَّدٌ الْمَعْبُودَاتِ كُلَّهَا وَاحِدًا، يَسْمَعُ دُعَاءَنَا جَمِيعَنَا، وَيَعْلَمُ عِبَادَةَ كُلِّ عَابِدٍ عَبَدَهُ مِنَّا {إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: ٥] أَيْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ...

• ومثله في قوله تعالى:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨)﴾ (الأعراف)

• وكلّ المرسَلين قالوا لأقوامهم ما حكاه الله في سورة الأعراف:

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف: ٥٩ و٦٥ و٧٣ و٨٥، وهود: ٥٠ و٦١ و٨٤، والمؤمنون: ٢٣ و٣٢)

أمروهم بعبادة الله وحده وبيّنوا لهم أنّه لا معبود بحقّ غيره.

• فأجابوا: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ (الأعراف: ٧٠)

أي: هم فهموا من لفظ الإله أنّه المعبود. والقرآن مليء بمثل هذا.

قال الطبري في معنى الآية:

> يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: قَالَتْ عَادٌ لِهُودٍ: أَجِئْتَنَا تَتَوَعَّدَنَا بِالْعِقَابِ مِنَ اللَّهِ عَلَى مَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ كَيْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَدِينَ لَهُ بِالطَّاعَةِ خَالِصًا وَنَهْجُرَ عِبَادَةَ الْآلِهَةِ وَالْأَصْنَامِ الَّتِي كَانَ آبَاؤُنَا يَعْبُدُونَهَا وَنَتَبَرَّأَ مِنْهَا؟ فَلَسْنَا فَاعِلِي ذَلِكَ وَلَا مُتَّبِعِيكَ عَلَى مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا مِنَ الْعِقَابِ وَالْعَذَابِ عَلَى تَرْكِنَا إِخْلَاصَ التَّوْحِيدِ لِلَّهِ، وَعِبَادَتِنَا مَا نَعْبُدُ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْأَوْثَانِ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ عَلَى مَا تَقُولُ وَتَعِدُ

وسيأتي مزيدُ بيانٍ حول هذه الآية لاحقاً إن شاء الله تعالى.

وذكَر البخاريُّ في كتابه خَلقُ أفعالِ العِباد – ورَواه غيرُ واحدٍ مِن الأئمَّةِ في مصنَّفاتِهم، منهم الترمذيُّ والطبرانيُّ في الدعاء وغيرِه والبزَّارُ في مُسنَدِه – قال:

> وَقَالَ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي: «كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ إِلَهًا؟» قَالَ: سَبْعَةٌ، سِتَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَوَاحِدٌ فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَلِرَهْبَتِكَ؟» قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «أَمَا إِنَّكَ إِنْ أَسْلَمْتَ عَلَّمْتُكَ كَلِمَتَيْنِ يَنْفَعَانِكَ»، فَلَمَّا أَسْلَمَ الْحُصَيْنُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلِّمْنِي الْكَلِمَتَيْنِ اللَّتَيْنِ وَعَدْتَنِي، قَالَ: «اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي»

فتبيّن أنّ المشركين من العرب فهموا معنى الشهادة تمام الفهم، لأنّهم تعجّبوا من محمّد ﷺ أنّه جعل الآلهة المعبودة عندهم معبوداً واحداً، وهذا يدلّ قطعاً على أنّهم فهموا ما خاطبهم به النبيّ ﷺ، فعلِموا معنى لا إلٰه إلّا الله.

وهناك بعض أهل الجهل في هذا العصر أمثال إخوانِهم الذين مضوا مِن قَبلهم ينكرون كون لفظ الإله بمعنى المعبود، مستدلّين بأهوائهم، يقصدون من وراء ذلك إبطال حقيقة

التوحيد وإدخال جميع من تلفَّظ بلا إله إلا الله في الإسلام، مَهْما عظْم شركُهم وطمَّ كفرهم.

وكلامهم مليء بالجهل والضلال، ولولا أنَّ كِبْرهم منَعهم مِن النظر في ما قاله أهل العلم في القرون الأولى، علموا أنَّ هؤلاء بيَّنوا معنى لفظ الإله كثيراً في كلامهم.

مِن ذلك ما ينقله أهل التفسير في عدَّةِ مواضعَ من كلامهم ممَّا لا يترك شكّاً أنّهم قرَّروا المعنى كما ذكرتُه فوق، وهو أنّ المشركين مِن العرب كانوا يعرفون أنّ الله خالقهم ورازقهم ونحو ذلك. فالنَّبيُّ ﷺ لم يأتهم بشهادة ألا إله إلا الله ليعلِّمهم ذلك، إذ قد علموه من قبل.

إنَّما المراد أن يتركوا شركهم في العبادة والطاعة. وليس معنى ذلك أنَّ مشركي العرب لم يقعوا في الإشراك بالله في ربوبيَّته، بل حصل ذلك من كثير منهم في جوانبَ مختلفةٍ من الربوبيَّة، كما بيَّنه الله في القرآن في مواضع، ولكنَّ هذا لا يبطل أنّ ما جاء به النبيُّ ﷺ هو الأمرُ بعبادة الله وحدَه والنهيُ عن الشرك في العبادة، وهذا ما لا يفهمه الزائغون، هداهم الله.

وسيأتي بعض ما نبَّهتُ إليه مِن كلام السلف فيما يلي.

فصل: أَقوالُ السَّلفِ فِي قَولِه تَعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وهُوَ أَوَّلُ نَهْيٍ فِي القُرْآن

قال الله تعالى في سورة البقرة:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾

روى ابن أبي حاتم في التفسير – وبمثله رواه الطبري – قال:

> عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: {فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٢] أَيْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ غَيْرَهُ مِنَ الأَنْدَادِ الَّتِي لَا تَنْفَعُ وَلا تَضُرُّ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا رَبَّ لَكُمْ يَرْزُقُكُمْ غَيْرُهُ، وَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِي يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ الرَّسُولُ مِنْ تَوْحِيدِهِ هُوَ الْحَقُّ لَا يُشَكُّ فِيهِ.

فهذا الخبر وحده يكفي في إبطال هذا الضلال المذكور، ومثله عن ابن أبي حاتم ما يلي:

> عَنْ قَتَادَةَ: {فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} أَنَّ اللهَ خَلَقَكُمْ وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، ثُمَّ أَنْتُمْ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا.

فالأمر بيَّنه السلف وفيه الكفاية. ولا شكَّ عند عاقل إن بيَّنوا ذلك بمثل هذا الوضوح أنَّه لا بد أن ينتقل المعنى إلى من يأخذ عنهم، ولِتَبْيينِ هذا سأذكرُ طرفاً مِن قول الطبريِّ في هذا الأمر. قال الطبري:

> فَكَأَنَّهُ قَالَ: اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الْخَالِقَكُمْ، وَالْخَالِقَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، الْجَاعِلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا.

> فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ الَّذِيَ خَلَقَهُمَا وَخَلَقَ جَمِيعَ مَا فِيهِمَا وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ عَلَيْهِمُ الطَّاعَةَ وَالْمُسْتَوْجِبُ مِنْهُمُ الشُّكْرَ وَالْعِبَادَةَ دُونَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ الَّتِي لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ...

> فَنَهَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَنَ يَعْبُدُوا غَيْرَهُ، أَوْ يَتَّخِذُوا لَهُ نِدًّا وَعَدْلًا فِي الطَّاعَةِ، فَقَالَ: كَمَا لَا شَرِيكَ لِي فِي خَلْقِكُمْ وَفِي رِزْقِكُمُ الَّذِي أَرْزُقُكُمْ، وَمُلْكِي إِيَّاكُمْ، وَنِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُهَا عَلَيْكُمْ، فَكَذَلِكَ فَأَفْرِدُوا لِيَ الطَّاعَةَ، وَأَخْلِصُوا لِيَ الْعِبَادَةَ، وَلَا تَجْعَلُوا لِي شَرِيكًا وَنِدًّا مِنْ خَلْقِي، فَإِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ كُلَّ نِعْمَةٍ عَلَيْكُمْ مِنِّي

وَلَكِنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ قَدْ أَخْبَرَ فِي كِتَابِهِ عَنْهَا[٢] أَنَّهَا كَانَتْ تُقِرُّ بِوَحْدَانِيَّةٍ، غَيْرَ أَنَّهَا كَانَتْ تُشْرِكُ فِي عِبَادَتِهِ مَا كَانَتْ تُشْرِكُ فِيهَا، فَقَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [الزخرف: ٨٧]، وَقَالَ: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} [يونس: ٣١] .

فَالَّذِي هُوَ أَوْلَى بِتَأْوِيلِ قَوْلِهِ: {وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٢] إِذْ كَانَ مَا كَانَ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنَ الْعِلْمِ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ مُبْدِعُ الْخَلْقِ وَخَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ، نَظِيرَ الَّذِي كَانَ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ. وَلَمْ يَكُنْ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ عَنَى بِقَوْلِهِ: {وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٢] أَحَدَ الْحِزْبَيْنِ، بَلْ مَخْرَجُ الْخِطَابِ بِذَلِكَ عَامٌّ لِلنَّاسِ كَافَّةً لَهُمْ، لِأَنَّهُ تَحَدَّى النَّاسَ كُلَّهُمْ بِقَوْلِهِ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ} [البقرة: ٢١] أَنْ يَكُونَ تَأْوِيلُهُ مَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ، مِنْ أَنَّهُ يَعْنِي بِذَلِكَ كُلَّ مُكَلَّفٍ عَالِمٍ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي خَلْقِهِ يُشْرِكُ مَعَهُ فِي عِبَادَتِهِ غَيْرَهُ، كَائِنًا مَنْ كَانَ مِنَ النَّاسِ

هذا كلامه في آية واحدة فحسب! فاعجب من ضلال من يزعمون شيئاً آخر، وانظر إلى غَفْلتِهم عن كلِّ هذه النصوص، وإن علِموا فانظر إلى شدَّة تكبُّرهم وتعاليهم على من عرَف أحوال العرَب في ذلك الزمان لأنَّه كان مِنهم وعاش في زمانهم! فهل الصحابة أدرى أم ضُلَّالُ هذا العصر؟!

[٢] أي: عن العرب ...

وجاء في تفسير مقاتل بن سليمان المتوفّى سنة ١٥٠ من الهجرة:

قوله: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ} يعني أهل مكّة: كفّارهم {لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} وذلك أنه لمّا نزلت في أوّل هذه السورة خلق السموات والأرض نزلت في آخرها {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}

فقال لهم النبيُّ ﷺ: من خلقكم ورزقكم وخلق السموات والأرض؟ فقالوا: الله خالق الأشياء كلّها، وهو خلقنا.

قال الله تعالى لنبيِّه ﷺ قل لهم: {فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} يقول مِن أين يكذبون بأنّه واحد لا شريك له، وأنتم مقرّون أنّ الله خالق الأشياء وخلقكم، ولم يشاركه أحد في ملكه فيما خلق؟ فكيف تعبدون غيره؟

فصل: قَوْلُ اللهِ تَعالى ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾

• قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧)**﴾ (سورة المؤمنون)

جاء في تفسير يحي بن سلام (المتوفّى ٢٠٠هـ) الذي يُذكر عنه أنّه لقي نحوَ عشرين من التّابعين وروَى عنهم :

وَكَانَ قَتَادَةُ يَقُولُ: لا بَيِّنَةَ لَهُ بِهِ بِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ أَنْ يَعْبُدَ إِلَهًا مِنْ دُونِهِ.

وقال الطبري هنا:

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَمَنْ يَدْعُ مَعَ الْمَعْبُودِ الَّذِي لَا تَصْلُحُ الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ مَعْبُودًا آخَرَ، لَا حُجَّةَ لَهُ بِمَا يَقُولُ وَيَعْمَلُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا بَيِّنَةَ

فصل: قولُه تعالى ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾

قال تعالى في سورة الزمر:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣)﴾

العرب أرادت الشفاعة من أوثانهم، وهذا كان عبادةً لهذه الأوثان، فكان منافياً لإخلاص العبادة لله تعالى، ولهذا كانوا مُشركين.

ومِن أهل الجهل في هذا الزمان من يتلاعب بهذه الآية على فهمه هو، على عادة من ضلَّ عن التفسير المأثور عن السلف، ولكنَّ السلف أعلمُ منهم بلا شكّ.

فجاء في تفسير الآية عند الطبري ما يلي:

> عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر: ٣] قَالَ: «قُرَيْشٌ تَقُولُهُ لِلْأَوْثَانِ، وَمَنْ قَبْلَهُمْ يَقُولُهُ لِلْمَلَائِكَةِ وَلِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَلِعُزَيْرٍ»

> عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر: ٣] قَالُوا: «مَا نَعْبُدُ هَؤُلَاءِ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا، إِلَّا لِيَشْفَعُوا لَنَا عِنْدَ اللَّهِ»

> عَنِ السُّدِّيِّ، فِي قَوْلِهِ: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر: ٣] قَالَ: هِيَ مَنْزِلَةٌ

> قَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر: ٣] قَالَ: «قَالُوا هُمْ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ، وَهُمُ الَّذِينَ يُقَرِّبُونَنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْأَوْثَانِ، وَالزُّلْفَى: الْقُرْبُ»

فلو قال رجل واحد من هؤلاء المفسِّرين مِن السلف هذا القول لا يشكُّ عاقل أنّه أعلمُ بشرك العرب وحقيقةِ حالهم لِقربِه منهم في الزمن واطّلاعه على أخبارهم. فكيف إذا رُوي هذا عن جَماهيرِهم؟ أَوَ بعدَ كلِّ هذا نلتفتُ إلى أيِّ فيلسوف كبير متزندق يخرج في هذه الأزمنة المتأخِّرة التي يغرَق الناس فيها في الجهل والضلال؟ أين تذهب عقولهم؟

وقال الطبري في معنى الآية:

> وَقَوْلُهُ: {إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [الزمر: ٣] يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْأَحْزَابِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا فِي الدُّنْيَا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ فِي الدُّنْيَا مِنْ عِبَادَتِهِمْ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ فِيهَا، بِأَنْ يُصْلِيَهُمْ جَمِيعًا جَهَنَّمَ، إِلَّا مَنْ أَخْلَصَ الدِّينَ لِلَّهِ، فَوَحَّدَهُ، وَلَمْ يُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا

فصل: التَّنْبِيهُ إِلَى الأَصلِ المُهِمِّ فِي الشَّرْعِ واللُّغَةِ أنَّ الشَّيءَ يُسَمَّى بِأَهَمِّ ما فِيه

قد رأيتَ أنّ الإسلام هو الاستسلام لله تعالى وإخلاص العبادة له، وستأتي نصوص كثيرة تثبت هذا وترسِّخه. وعلى نحوه ستأتي تسمية الإسلام بالحنيفيَّة وغير ذلك من العبارات.

فيحسن هنا تقديم أصلٍ مهمٍّ يبيّن أنَّ الشيءَ في الشرع وفي لغة العرب يسمَّى ويوصفُ بأهمِّ أجزاءه وأعظم ما فيه. وكثيراً ما يَحصل ذلك بألفاظ متعدِّدةٍ ترجع إلى أصلٍ واحد في المعنى، وهذه العبارات والألفاظ عندئذٍ متداخلةٌ في المعنى يشدُّ بعضُها بعضاً.

ومثال ذلك قولُ النبيِّ ﷺ عند الترمذيِّ وعند كثيرٍ مِن الأئمَّة:

> عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَعْمَرَ، أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِعَرَفَةَ فَسَأَلُوهُ، فَأَمَرَ مُنَادِيًا، فَنَادَى: «الحَجُّ عَرَفَةُ ...

ومعناه أنَّ الوقوف بِعرفةَ هو الركن الأعظم في الحجّ ومَن فاته الوقوف فاته الحجّ.

وعند مسلم:

> عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ» ثَلَاثًا غَيْرُ تَمَامٍ. فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ؟ فَقَالَ: اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: ٢]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [الفاتحة: ٣]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥] قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: ٧] قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»

سمّى الله تعالى هنا الفاتحة بالصَّلاة لمّا قال (قَسَمْتُ الصَّلَاةَ) ثمَّ بيَّن كيف قِسمة سورة الفاتحة في الصلاة، ذلك لأنها أعظم ركن في الصلاة.

وفي آية البقرة سمَّى الصَّلاة إيماناً، واستدلَّ أئِمَّة السنَّة بها على أنَّ الأعمال من الإيمان، إذ سُمِّيَت الصَّلاة إيماناً وهي عمل:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣)﴾

فسمَّى الصّلاة إيماناً لأنَّها أعظمُ عملٍ في الإيمان بعدَ أساسِه الذي هو التوحيد والإخلاص.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه الإيمان:

> {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [البقرة:١٤٣] .
>
> وَإِنَّمَا نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ تُوُفُّوا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُمْ عَلَى الصَّلَاةِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فسُئل رسولُ اللَّهِ ﷺ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.
>
> فَأَيُّ شاهدٍ يُلتمس عَلَى أَنَّ الصلاةَ مِنَ الْإِيمَانِ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ؟

هذه أمثلة يذكرها أهل العلم في هذا المقام، والله تعالى أعلم.

فالشيء يسمَّى بأهمِّ أجزائه كما ظهر من الأمثلة المذكورة، وهو في تسميَة الإسلام أوضح.

ووَفْقَ ما قيل هنا جاء بيانُ معنى الإسلام في نصوص الشرع بأنّه الإخلاص، وإخلاص العبادة والطاعة لله، وإخلاص الدِّين لله، وإسلامُ الوجه لله تعالى، والحنِيفيَّة، والإيمان بالله والكفر بالطاغوت، وتوحيد العبادة، وعبادة الله وحده لا شريك له، وملَّة إبراهيم.

فكلُّ هذا يدلُّ على أهمِّ معنًى في الإسلام وعلى الأساس الذي بُنِيَ عليه، والعبارات متداخلةٌ كلُّ عبارةٍ تدلُّ على هذا المعنى من جانب. وهذه طريقة النبيِّ ﷺ والصحابة ﷺ وأئمّة السلف من بعدهم رَحِمَهُمُ اللهُ في تقرير أمور الدين.

فصل: مَن يَقولُ إنَّ العِبادةَ لا تَكُونُ شِركاً حتَّى يُشرِكَ في الرُّبُوبِيَّةِ

وهناك من يريد أن يتلاعب بمعنى الشهادة من جهة أنَّه يزعم أنّ العبادة عندما تُذكر في الكتاب والسُّنَّة ليست مقصودةً بذاتها، فمَن عبد غير الله عبادةً ظاهرةً ليس فعلُه شركاً بالله حتَّى يكونَ مقروناً بالإشراك في الربوبيِّة، حَسَبَ زعمِ ذلك القَوم.

فاعجب بعدَ ما رأيتَ مِن البيان مِن قولهم هذا ومِن جهل هؤلاء، إذ كيف يَدَّعي عاقل أنَّ الله أراد شيئاً ثمَّ سمّاه بما ليس مُهمّاً فيه وبما لا تأثيرَ له في نفس الأمر؟!

فأوَّلُ أمرٍ في كتاب الله هو الأمر بالعبادة، قال تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)﴾ (البقرة)

فيأتي هؤلاء القوم موهمين أنَّ الله إنَّما أراد بذلك: (لا تشركوا بالله صاحبةً ولا ولداً).

وقال تعالى:

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)﴾ (يوسف)

فمعناه على قولهم الزائغ مثلاً: (ما تنسبون إلى الله الولدَ ونحوَه إلا تسميَةً لا حقيقةَ لها، وأمَرَ اللهُ أن لا تنسبوا له الولدَ ونحوَه)

ومثل ذلك في قوله تعالى:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨)﴾ (يونس)

وفي سورة الزمر:

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥)﴾

وقال النبيُّ ﷺ في رواية لحديث البخاريّ الذي سبق ذكره في أوّل هذا الكتاب:

> الإِسْلاَمُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ

فيلزم أن يكون معناه عند أهل الضلال هؤلاء: (الإسلام أن لا تنسب إلى الله الولد ونحوه وتجعله واحداً في الخلق والرزق ونحوهما).

والمواضع التي فيها ذكر الأمر بعبادة الله وحده والنهي عن الشرك فيها لا تنحصر عدداً كما يَعلم ضرورةً كلُّ مَن نظَر في نصوص هذا الدين، وعلى قولِ هؤلاء سمَّى الله تعالى في كلِّ هذه المواضع العبادةَ، مع كونِها لا تؤثِّر في حقيقة الأمر شيئاً! فمن عبَد غير الله يكونُ مسلماً مخلصاً لله تعالى عندَهم، ما لم تنضمَّ إلى فعله شيءٌ مِن اعتقادِ الولد الذي يتصرّف في الكون مستقلّاً عن الله تعالى ونحوه. لذلك تراهم كثيراً يشترطون استقلالَ المعبودِ في القدرة عن قدرة الله تعالى، فليس العابد عندهم مشركاً حتى يعتقدَ في معبودِه الاستقلالَ عن الله تعالى، بل يُنكرون كونَه عابداً أصلاً، فيقول مَن بلغ مبلغَه مِن الكِبر منهم إنَّه لا يسمَّى عابداً أصلاً حتى يعتقدَ استقلالَ المعبود.

كلُّ هذا مع دوَرانِ هذا الدِّين ونصوصِه حولَ لفظِ العبادةِ والنَّهْي عن الإشراك فيها. أليس هذا من العجب العجاب؟

(باب) مَكانَةُ (لا إلهَ إلا اللهُ) فِي دِينِ الإسْلام

فصل: فِي عِظَمِ شَأْنِ (لا إلهَ إلَّا اللهُ)

• قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾ (الأنبياء)

روى الترمذي في السنن – ورواه ابن ماجه، والنسائي في الكبرى وفي عمل اليوم والليلة وغيرهم – قال:

> ... سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: أَفْضَلُ الذِّكْرِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الحَمْدُ لِلَّهِ.

وروى البخاري في الأدب المفرد والطبراني في الكبير وأحمد في مسنده أنَّ رسول الله ﷺ قال:

> إِنَّ نَبِيَّ اللهِ نُوحًا ﷺ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِابْنِهِ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ: آمُرُكَ بِاثْنَتَيْنِ، وَأَنْهَاكَ عَنِ اثْنَتَيْنِ، آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ، لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ، رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ، كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً، قَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فَإِنَّهَا صَلَاةُ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ الْخَلْقُ، وَأَنْهَاكَ عَنِ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ

وروى النسائي في السنن الكبرى وفي عمل اليوم واللّيلة – والطبراني في الدعاء وابن أبي شيبة في المصنَّف – وبوّب له (ذِكْرُ خَبَرِ أَبِي سَعِيدٍ فِي فَضْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) قال:

> عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ بِهِ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: يَا مُوسَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ، كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُ هَذَا، قَالَ: قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئًا تَخُصُّنِي بِهِ، قَالَ: يَا مُوسَى لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كَفَّةٍ[٣]، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كَفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»

وروى أبو القاسم هبة الله اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة عن عبد الله بن عمرو قال:

> قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ اللَّهُ لَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدُّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَيَهَابُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا يَارَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَاتٍ، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ»

ورواه أيضا أبو بكر الآجرّي في الأربعين فقال:

> عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِرَجُلٍ إِلَى الْمِيزَانِ، وَيُؤْتَى بِتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِنْهَا مَدُّ الْبَصَرِ، فِيهَا خَطَايَاهُ وَذُنُوبُهُ، فَتُوضَعُ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ، ثُمَّ يُخْرَجُ بِطَاقَةٌ بِقَدْرِ أُنْمُلَةٍ فِيهَا: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَتُوضَعُ فِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى، فَتَرْجَحُ بِخَطَايَاهُ وَذُنُوبِهِ»

---

[٣] وأكثرهم يضبطونها (كِفَّة) بكسر الكاف، وهما لغتان.

ورواه غيرهما. وحديث البطاقة هذا قد تلاعب به بعض من ضلّ الطريق، وقد عرفتَ أنّ لا إله إلا الله معناها التوحيد علماً وعملاً، وبه تَعلم أنّ من جعلها تلفّظاً مجرَّداً وخلّاها عند الكلام على هذا الحديث مِن شرط العلم واليقين والقصد ومِن العمل بِمقتضاها ويتوهَّم أنّها تُفيد قائلها مع تلبُّسه بالشرك الأكبر وما يناقضها مِن أصلها، فقد وقع بذلك في أعظم تحريفٍ لأساس الملَّة. وما تجده في هذا الكتاب يدور حول هذا الأمر كلُّه ويُوضّح المذكور هاهنا أكثرَ فأكثرَ، فاذكر هذا الحديث عند قراءة ما يأتي.

وروى أبو نعيم في الحِلية:

> ثنا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مَعْمَرٍ، وَإِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، قَالَا: سَمِعْنَا سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ، يَقُولُ: «مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى الْعِبَادِ نِعْمَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ عَرَّفَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ كَالْمَاءِ فِي الدُّنْيَا»

> ... قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: «يُقَالُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي الْآخِرَةِ بِمَنْزِلَةِ الْمَاءِ فِي الدُّنْيَا، لَا يَحْيَى شَيْءٌ فِي الدُّنْيَا إِلَّا عَلَى الْمَاءِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} [الأنبياء: ٣٠]، فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ بِمَنْزِلَةِ الْمَاءِ فِي الدُّنْيَا، مَنْ لَمْ تَكُنْ مَعَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَهُوَ مَيِّتٌ، وَمَنْ كَانَتْ مَعَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَهُوَ حَيٌّ»

فصل: فِي أنَّ الإسلامَ هُوَ تَوحِيدُ العِبادةِ وأَنّه رَأْسُ الأَمرِ كلِّه

روى أحمد في مسنده قال:

> **عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ. قَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ»**

> ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟: الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ» ثُمَّ قَرَأَ: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} [السجدة: ١٧]، حَتَّى بَلَغَ، {يَعْمَلُونَ}
>
> ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ[٤] سَنَامِهِ؟» فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ»
>
> ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» فَقُلْتُ لَهُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللهِ. فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، فَقَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»

وعند الترمذي:

> أَلاَ أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ

فصل: فِي أنَّ الإسلامَ أَعْلَى شُعَبِ الإيمانِ وَلا تَنْفَعُ الشُعَبُ الأخْرى إلّا بِهذه الشُّعْبَة

روى مسلم :

> عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»

---

[٤] وأكثرهم يضبطونه (ذِرْوَة) بكسر الذال، وهما لغتان.

وعند أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم (**وَأَرْفَعُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**) وعند ابن أبي شيبة (**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ بَابًا، أَوْ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ بَابًا أَعْظَمُهَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**) وعند الطبراني في الدعاء وابن منده في الإيمان وغيرهما (**أَعْلَاهَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**) وقال أبو بكر الخلال في السنَّة واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنَّة والجماعة وأبو نعيم في الحلية قالوا (**أَوَّلُهَا شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**) وعند أبي نعيم أيضاً (**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ خَصْلَةً أَكْبَرُهَا شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَصْغَرُهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ**).

فلا يبقى ريب أنَّ دين الإسلام كلَّه يَنبَني على لا إله إلا الله وتوحيدِ العبادة وأنّ ذلك رأس الإسلام وأفضله وأوَّله وأرفعُه وأعلاه، وأنّ أهل الإسلام في القرون الأولى على ذلك قاطبةً لا يختلف فيه اثنان منهم.

فمَن أشرك بالله الشرك الأكبر في العبادة أو الطاعة لا يمكن أن يكون ممن حقّق الإسلام البتَّة، مهْما أتى به من الشعب الأخرى مِن صلاةٍ وزكاة وحجّ وإطعام الطعام والإحسان إلى اليتامى وغير ذلك.

ومن وُجدتْ منه أعلى شعبة في الظاهر مع خُلُوِّ قلبِه منها فهو منافق خالص، يَثبت له عقد الإسلام في الظاهر ما لم يَظهَرْ ويثبُتْ منه الكفرُ الصريح.

فصل: فِي أَنَّ لِلشَّهادَةِ شُرُوطاً

قال البخاري – رحمه الله ورحِم أئمَّةَ المسلمين – في الصحيح:

> بَابُ مَا جَاءَ فِي الجَنَائِزِ، وَمَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
>
> وَقِيلَ لِوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ: أَلَيْسَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مِفْتَاحُ الجَنَّةِ؟ قَالَ: «بَلَى، وَلَكِنْ لَيْسَ مِفْتَاحٌ إِلَّا لَهُ أَسْنَانٌ، فَإِنْ جِئْتَ بِمِفْتَاحٍ لَهُ أَسْنَانٌ فُتِحَ لَكَ، وَإِلَّا لَمْ يُفْتَحْ لَكَ»

فلا شكَّ في صحّة معنى ما رواه البزّار في مسنده ورواه غيرُه:

> عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ شَهَادَةُ أَنَّ لَا إِلَهِ إِلَّا اللَّهُ» وَشَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ

هكذا، إذا كانت على شروطها، وهذا معلوم عند المسلمين، وقد رأيتَ أنّ السلف صرَّحوا بهذا المعنى.

وروى أبو القاسم الأصبهاني في كتاب الحجَّة في بيان المحجَّة عن الحسن البصري:

> عَن الْحسن بن عميرَة قَالَ: قيل لِلْحسنِ: إنّ نَاساً يَقُولُونَ: مَن قَالَ لَا إِلَه إِلَّا الله دخَل الْجنَّة. قَالَ: مَن قَالَ لَا إِلَه إِلَّا الله فَأدَّى حَقَّهَا وفرضَها، دخل الْجنَّة.

(باب) بَيانُ أصلِ لفظِ الإسلامِ فِي اللُّغةِ وَوُرُودُه فِي القُرآن

فصل: مَعنَى (سَلِمَ) الَّذي هُوَ أصْلُ لَفْظِ الإسْلامِ في اللُّغَة

الإسلام مصدر[٥] الفِعْل أَسْلَمَ. وهذا الفعل مأخوذ[٦] من الجِذر (سَلِمَ).

يتلخّص ما يُذكر في المعاجم في معنى سَلِمَ كما يلي:

- سلِمَ مِن الآفاتِ والعيوبِ يَسْلَمُ سَلاماً وسَلامَةً، أي: بَرِئَ.
- والسَلامُ والسَلامَةُ: البَراءَةُ، والسَّلامُ في الأَصل: السَّلامةُ، ومنه قيل لِلجنَّةِ دارُ السَّلامِ، لأَنّها دارُ السَّلامةِ مِنَ الآفات.
- سَلِمَ له كذا أي خَلَصَ فهو سَالِمٌ وسَلِيمٌ.

فصل: إسْتِعْمالُ (سَلِمَ) فِي القُرآنِ ومَثَلُ المُسْلِمِ والمُشْرِكِ

وَرَدَ في القرآن (سَلَمٌ) الذي هو مصدرُ (سَلِمَ). قال تعالى:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٢٩)

[٥] يقول النحويّون المصدر هو اسم فيه معنى الفعل مع عدم دلالته على زمن معيّن.

[٦] أي مُشتقٌّ، بغضِّ النظَر عن مسألةِ أصلِ الاشتقاق في اللُّغة وهل المصدر هو الأصل أم الفعل، المسألة الّتي حصل فيها نقاشٌ بينَ الكوفيّين والبصريّين.

وقال الطبريّ:

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: ٢٩] يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: مَثَّلَ اللَّهُ مَثَلًا لِلْكَافِرِ بِاللَّهِ الَّذِي يَعْبُدُ آلِهَةً شَتَّى، وَيُطِيعُ جَمَاعَةً مِنَ الشَّيَاطِينِ، وَالْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ الْوَاحِدَ،

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِهَذَا الْكَافِرِ رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ يَقُولُ: هُوَ بَيْنَ جَمَاعَةٍ مَالِكِينَ مُتَشَاكِسِينَ، يَعْنِي مُخْتَلِفِينَ مُتَنَازِعِينَ، سَيِّئَةٌ أَخْلَاقُهُمْ، مِنْ قَوْلِهِمْ: رَجُلٌ شَكِسٌ: إِذَا كَانَ سَيِّئَ الْخُلُقِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَسْتَخْدِمُهُ بِقَدْرِ نَصِيبِهِ وَمُلْكِهِ فِيهِ،

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾، يَقُولُ: وَرَجُلًا خُلُوصًا لِرَجُلٍ يَعْنِي الْمُؤْمِنَ الْمُوَحِّدَ الَّذِي أَخْلَصَ عِبَادَتَهُ لِلَّهِ، لَا يَعْبُدُ غَيْرَهُ وَلَا يَدِينُ لِشَيْءٍ سِوَاهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ

وَاخْتَلَفَتِ الْقُرَّاءُ فِي قِرَاءَةِ قَوْلِهِ: {وَرَجُلًا سَلَمًا} [الزمر: ٢٩] فَقَرَأَ ذَلِكَ بَعْضُ قُرَّاءِ أَهْلِ مَكَّةَ وَالْبَصْرَةِ: (وَرَجُلًا سَالِمًا) وَتَأَوَّلُوهُ بِمَعْنَى: رَجُلًا خَالِصًا لِرَجُلٍ، وَقَدْ رُوِيَ ذَلِكَ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ...

... عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ قَرَأَهَا: «سَالِمًا لِرَجُلٍ» يَعْنِي بِالْأَلِفِ، وَقَالَ: «لَيْسَ فِيهِ لِأَحَدٍ شَيْءٌ»

وَقَرَأَ ذَلِكَ عَامَّةُ قُرَّاءِ الْمَدِينَةِ وَالْكُوفَةِ: {وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ} [الزمر: ٢٩] بِمَعْنَى: صُلْحًا وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا أَنَّهُمَا قِرَاءَتَانِ مَعْرُوفَتَانِ، قَدْ قَرَأَ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عُلَمَاءُ مِنَ الْقُرَّاءِ، مُتَقَارِبَتَا الْمَعْنَى، فَبِأَيَّتِهِمَا قَرَأَ الْقَارِئُ فَمُصِيبٌ؛

> وَذَلِكَ أَنَّ السَّلَمَ مَصْدَرٌ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: سَلِمَ فُلَانٌ لِلَّهِ سَلَمًا بِمَعْنَى: خَلَصَ لَهُ خُلُوصًا

الطبريّ يذكر هنا صراحةً أنّ الرجل الأوّل في المثَل مسلمٌ موحِّدٌ طهَّر جميعَ أعمالِه مِن الشرك، ليس له إلٰه آخرُ ولا شريك.

وهذا معنًى ظاهرٌ حتّى عند متأخِّري أهل اللغة مثل ابن منظور، قال في هذه الآية في لسان العرب في مادَّة (سلم):

> ﴿ورجلاً سَلَماً لرجل﴾: وقُرئ ﴿ورجلاً سالِماً لرجل﴾ ... والمعنى أَنّ مَن وحَّدَ اللَّه مَثَلُه مَثَلُ السالم لرجلٍ لا يَشْرَكُه فيه غيرُه ومَثَلُ الذي أَشرَك اللَّهَ مَثَلُ صاحبِ الشُّرَكاءِ المتشاكسِينَ.

فالله تعالى يضرب مثلاً للمسلم والمشرك مبيِّناً لِلفرق بينَهما، ثمّ يؤكِّد هذا الفرق بقوله ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾.

وجاء بيانُ معنى الآية وَفق بيان الطبريّ السابق عن بعض السلف، كما روى الطبريُّ نفسُه في التفسير عند هذه الآية:

> حَدَّثَنِي يُونُسُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ، فِي قَوْلِهِ: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ} [الزمر: ٢٩]
>
> قَالَ: «أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ الَّذِي فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ كُلُّهُمْ سَيِّئُ الْخُلُقِ، لَيْسَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ إِلَّا تَلْقَاهُ آخِذًا بِطَرَفٍ مِنْ مَالٍ لِاسْتِخْدَامِهِ أَسْوَؤُهُمْ، وَالَّذِي لَا يَمْلِكُهُ إِلَّا وَاحِدٌ،
>
> فَإِنَّمَا هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْآلِهَةَ، وَجَعَلُوا لَهَا فِي أَعْنَاقِهِمْ حُقُوقًا، فَضَرَبَهُ اللَّهُ مَثَلًا لَهُمْ، وَلِلَّذِي يَعْبُدُهُ وَحْدَهُ {هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: ٢٩]» وَفِي قَوْلِهِ: «وَرَجُلًا سَالِمًا لِرَجُلٍ» يَقُولُ: «لَيْسَ مَعَهُ شِرْكٌ»

وابن زيد هذا هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم رحمه الله تعالى، الذي اشتهر بحسن قوله ودقّة فهمِه في تأويل كتاب الله تعالى.

ثم قال الطبري:

> ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وَمَا يَسْتَوِي هَذَا الْمُشْتَرَكُ فِيهِ، وَالَّذِي هُوَ مُنْفَرِدٌ مُلْكُهُ لِوَاحِدٍ، بَلْ أَكْثَرُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمَا لَا يَسْتَوِيَانِ، فَهُمْ بِجَهْلِهِمْ بِذَلِكَ يَعْبُدُونَ آلِهَةً شَتَّى مِنْ دُونِ اللَّهِ.

وفي كلامه هذا أوضح بيان أنّ عامّةَ أهل الشرك إنّما يُشركون بالله لجهلهم بحقيقة فِعْلِهم وعِظَم قُبحه، ولم يَجعلْهم بِجهلهم هذا مسلمين معذورين في شيء، مع انتسابهم لِدينِ إبراهيم الذي هو الإسلام العامّ في حقيقته وأصلِه.

فصل: ما يَلزَمُ المُخالِفَ فِي هَذِهِ الآيَةِ

قد بيّن الله تعالى أنّ المسلم والمشرك ضدّان، وذكر الفارق بينهما وهو فعل الشرك[٧]. المسلم يتّصف بالإخلاص بخلاف المشرك. إضافةً إلى ذلك ذُكر في الآية أنّ أكثر المشركين لا يعلمون حقيقةَ حالِهم، كما سبق.

---

[٧] معلوم أنّ الأحكام لا يمكن أن تعلَّق بالباطن، إذ ليس في مقدور البشر معرفة ما في باطن الإنسان لذا لسنا مأمورين بشقّ بطونهم، وعلماء السلف قد نبّهوا إلى ذلك مراراً، ومن ذلك قول الشافعيِّ رحمه الله تعالى في كتابه الأُمّ:

> وَأَحْكَامُ اللهِ وَرَسُولِهِ تَدُلُّ عَلَى أَنْ لَيْسَ لِأَحدٍ أَنْ يَحْكُمَ عَلَى أَحدٍ إِلَّا بِظاهِرٍ، وَالظَّاهِرُ مَا أَقَرَّ بِهِ أَوْ مَا قَامَتْ بِهِ بَيِّنَةٌ تُثْبِتُ عَلَيْهِ، فَالْحُجَّةُ فِيمَا وَصَفْنَا مِنْ الْمُنَافِقِينَ وَفِي الرَّجُلِ الَّذِي اسْتَفْتَى فِيهِ الْمِقْدَادُ

--...

فالذين يجوِّزون وجود (مسلمٍ مشركٍ) بِحجَّةِ أنّه معذور بجهله بالإسلام، لا بدّ لهم من مخالفة الآية صراحةً كما يلي:

• على قولهم لا يمكن أن يَشمل هذا المَثَلُ المشركَ الجاهل، بينما يجعله الله تعالى منه بوضوح. المشرك - علِم أم جهِل - لا يعبد الله وحده، فلا يمكن أن يكون مسلماً مخلصاً لله.

• أكثر المشركين يجهلون هذه الحقيقة ويقعون في الشرك بسبب هذا الجهل، كما بيّنه الطبري، لكنّ هؤلاء المشركين الجهّال يجب على هذا القول الباطل أن يصِيروا بجهلهم مسلمين.

• قولهم يقتضي أن لا يكون هناك فرقٌ بينَ المشرك الجاهل والمسلم وأنّهما يستويان، مع أنّ الله تعالى يصرّح في الآية أنّ مِثل هذا المشرك تماماً ليس مسلماً حتماً، بل أنّه ضدّ المسلم.

• ثم يَجب عليهم تخطئة جميع من سلف من أهل العلم، لأنّ قولهم لا يحتمل معنًى آخر، فلا يمكن أنّهم تصوّروا وجود أناس هم مشركون ومسلمون في آنٍ واحدٍ، بل من قرأ كلامهم علِم أنّ مثلَ هذا لم يخطُر على بالهم أصلاً.

> رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ قَطَعَ يَدَهُ عَلَى الشِّرْكِ، وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ (فَهَلَّا كَشَفْتَ عَنْ قَلْبِهِ؟) يَعْنِي أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا ظَاهِرُهُ.

وبناءً عليه يُتصوَّر أنّ شخصاً ما يُعتبر مسلماً في الظاهر مع أنّه لم يفهم التوحيد في نفس الأمر ويفعل الشرك جهلاً، لكن ما لم يُرَ هذا منه لم يُمكن أن يُحكَم عليه به، فيَبقى مسلماً في الظاهر. وهو بهذا الاعتبارِ كالمُنافقِ الذي لم يَقبل الإسلام في باطنِه مع إظهاره له، والمنافق الخالص يُعتبر مسلماً في الظاهر حتى يُثبِت الدَّليل خلافَ ذلك.

وهذا يبيّن أنَّ كونَ التوحيد أساسَ دين الإسلام وكونَ الإسلام يستحيل تَحقُّقُهُ مع وجودِ الشرك، كان عند المتقدِّمينَ مِن أوضح الأمور. حتَّى أهل البدعة ما خطر بِبالهم أن يجعلوا مشركاً ما مسلماً.

وبهذا تكُون الآية حجَّةً قاطعةً في هذا الأمر.

(باب) بيانُ مَعْنَى لَفْظِ الإسلامِ في اللُّغة أنَّه الإخْلَاصُ وَتَسْمِيَتُهُ بِذلك فِي السُّنَّة

فصل: مَعنَى الفِعْلِ (أَسْلَمَ) وأنَّ الإسلامَ هُوَ الإخْلاص

ورد معنى الفعل (أسلم) في المعاجم كما يلي:

- أسلَمَ أي انْقاد واستَسلَمَ
- ودخَل في السِلْم (بالفتح وبالكسر)
- أسلَمَ الشيءَ إليه أيْ دفَعَه
- أسلَمَ أمرَه له وإليه أيْ فوّضَه
- أسلَمَ الشيءَ مِثْل (سلَّمَه له) بمعنى: خلَّصَه له أيْ جعَلَه سالِماً له وخالِصاً، فإذا أَسْلَمَه له وإليه جَعَلَه سالِماً له وخالِصاً

وكما هو مبيَّن في كتب علم الصرف، يجوز أن تُزاد في أوّلِ الفعلِ الثلاثيِّ همزةٌ. وهذا التغيير في بِنية الكلمة يؤدِّي إلى إضافة معنى الجَعْلِ إلى الفعل، مثلَ (جَلَسَ)، فإن قيل (أَجْلَسَه) فالمراد: جَعَلَه يَجلِسُ.

وهكذا استعْمَلت العربُ (أَسْلَمَ) بمعنى (جعَلَه يَسْلَمُ) أي جعَلَه سَالِماً، فيكون هناك تطابقٌ في البنية والمعنى بين سَلِمَ وأَسْلَمَ وبين خَلَصَ وأخْلَص. العربُ تقول إذا طهَّر فلانٌ الماءَ أو الذهَبَ أو نحوَه أخْلَص الماءَ يُخلِصُه.

فالإسلام هو الإخلاص، لا وجود للإسلام دون إخلاص. وبذلك يظهر التناقض عند من يزعم وجودَ مسلمٍ يفعل الشرك الأكبر ويعبُد إلهاً آخر مِن دون الله، إذ معنى ذلك أنّه (مُخلصٌ غيرُ مُخلصٍ) في آن واحد، أي من يقول هذا يفترض مسلماً بلا إسلام.

وأمّا الإخلاص فالمراد به تطهير الأفعال من الشرك كما تبيَّن ممّا سبق في هذا الكتاب وممّا يأتي. فإنّ الرسل ما بُعثوا إلا لهذا، وبُعثوا إلى أقوام أشركوا بالله تعالى وما أخلصوا له.

فصل: تَسْمِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ شَهادةَ الإسلامِ بِـ (كَلِمَةِ الإخلاص)

ولِما تقدّم من بيان معنى كلمة الإسلام وأنّه الإخلاص ذكَر أهل العلم كثيراً أنّ التوحيد هو إخلاص العبادة لله، وقد رأيتَه مراراً فيما نقل في هذا الكتاب وتأتي أمثلة أخرى.

وسمَّوا شَهادةَ الإسلامِ (كلمةَ التوحيد) و(كلمةَ الإخلاص)، اتِّباعاً لِما قَد ورَد في السنَّة من ذلك.

كما روى أحمد في مسنده:

> عَنِ ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبْزَى عَنْ أَبِيهِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا محمّد ﷺ وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ.

(باب) ذِكرُ (إسلامِ الوجهِ) للهِ فِي القُرآنِ وأنَّه الإسْلام والإخْلَاص

قد اتّضح أنّ الدِّين كلّه ينبني على تطهير الأعمال من الشرك الأكبر، وقد سُمِّيَ الدينُ كلُّه باسم يدلّ على هذا المعنى دلالةً صريحةً. وما قيل في المصدر يقال في جميع المشتقّات لأنّها تحمل المعنى نفسه. فالمتّبع لهذا الدين اسمه مسلم لأنّه محقِّقٌ لِلإسلام أي لِلإخلاص.

ولا شكّ أنّ بيان هذا المعنى لا بدّ أن يكون ظاهراً متكرِّراً في كتاب الله لِأهميَّته، لذلك نجد في القرآن عدَّةَ مواضعَ تبيِّن معنى الإسلام، وفيها تفصيل المرادِ بالشيء الذي يُسلِمُه المسلم ويُخلِصُه المُخلِص ما هو، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن، وقد صرّح السلف بهذا مراراً كما يأتي.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١)﴾ (البقرة)

• فهؤلاء من اليهود والنصارى ادّعَوا أن الجنّة مخصوصة لهم.

• فادّعت كلّ طائفة منهما أنّ الذي يُدخله الله جنّته لا يكون إلّا منهم.

كما روى ابن أبي حاتم في تفسيره:

> عن ابن الْعَالِيَةِ قَالَ: قَالَتِ الْيَهُودُ: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا يَهُودِيٌّ. وَقَالَتِ النَّصَارَى: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا نَصْرَانِيٌّ. وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَالرَّبِيعِ، وَالسُّدِّيِّ نَحْوُ ذَلِكَ.

• لكنّ الله تعالى يكذّبهم، فإنّما ذلك من أمانيّهم التي ذكر الله بعضها في مواضعَ من كتابه.

روى ابن أبي حاتم:

> عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ يَقُولُ اللَّهُ: تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ يَقُولُ: أَمَانِيّ تَمَنَّوْهَا عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ.
>
> وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ نَحْوُ ذَلِكَ.

• ثم يقرّر الله تعالى المنهج الصحيح الوحيد لمعرفة الحقّ وهو إثبات الدعوى بالدليل.

• هذا الدليل لا يمكن أن يكون في هذا الأمر من غير الله، لأنّهم تكلّموا فيمن يدخله الله جنّته دون غيره، وهذا لا يُعلم إلا مِن عند الله تعالى. لكنّ الله تعالى يكذّب دعواهم هذه ويبيّن أنّهم افترَوا ذلك على الله بغير علم.

كما روى ابن أبي حاتم:

> ... عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ: قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ أَيْ حُجَّتَكُمْ.
>
> وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَالسُّدِّيِّ، وَالرَّبِيعِ نَحْوُ ذَلِكَ.

> ... عَنْ قَتَادَةَ: قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ قَالَ: بَيِّنَتَكُمْ عَلَى ذَلِكَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

ثم يبيّن الله تعالى مَن الذي يَدخل الجنّة حقيقةً بِخلاف دعواهم، فقال:

﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)﴾ (البقرة)

• أي بلى هناك مَن يدخل الجنّة وله أجره عند ربّه.

• وهو المسلم وجهَه لله. فالله تعالى يخبر أنّ كلّ مَن اتَّصف بهذا نال رضاه، وفي ذلك بيان معنى كلمة الإسلام. كما جاء عند الطبري:

> ... عَنِ السُّدِّيِّ، قَالَ: «أَخْبَرَهُمْ أَنَّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ هُوَ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ».

• أمّا الأجْر المذكور في الآية فهو الجنّة ورضوان الله، لِما ذكِر في الآية التي قبلها من أنّ أهل الكتاب ادّعوا ذلك لأنفسهم كما سبق.

• هؤلاء المسلمون لا خوف عليهم ممّا يأتي ولا هم يحزنون على ما مضى.

كما روى ابن أبي حاتم في التفسير:

> ... عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ: لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ يَعْنِي فِي الآخِرَةِ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ يَعْنِي لَا يَحْزَنُونَ لِلْمَوْتِ.

فصل: تَفْسِيرُ السَّلَفِ لِقَولِه تَعالى ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ بالإخلاص

روى ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية:

> ... عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ: بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ يَقُولُ: مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ. وَرُوِيَ عَنِ الرَّبِيعِ نَحْوُ ذَلِكَ.

> ... عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ قَالَ: مَنْ أَسْلَمَ أَخْلَصَ وَجْهَهُ، قَالَ: دِينَهُ.

وذكَر كِلا القولين أيضاً عند قوله تعالى ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥)**﴾ (النساء)

والحنيفُ هو المتّبع لملَّة إبراهيم المخلصُ لله تعالى، كما روى ابن أبي حاتم عند الآية المذكورة آنفاً:

> عَنِ السُّدِّيِّ قَوْلَهُ: حَنِيفًا يَقُولُ: مُخْلِصًا.

وإن جاء غير ذلك عن السلف فليس على سبيل المخالفة بل من قبيل اختلاف التنوّع الذي هو ضرب الأمثال للأمر الواحد، وهذا كثير في تفسير السلف للآيات.

وروى الطبريّ في آية البقرة مثل ما سبق عند ابن أبي حاتم بسنده عن الربيع كما يأتي في النقل التالي.

قال الطبري في معنى إسلام الوجه لله:

وَأَمَّا قَوْلُهُ: {مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ} [البقرة: ١١٢] فَإِنَّهُ يَعْنِي بِإِسْلَامِ الْوَجْهِ التَّذَلُّلَ لِطَاعَتِهِ وَالْإِذْعَانَ لِأَمْرِهِ. وَأَصْلُ الْإِسْلَامِ: الِاسْتِسْلَامُ؛ لِأَنَّهُ مِنِ اسْتَسْلَمْتُ لِأَمْرِهِ، وَهُوَ الْخُضُوعُ لِأَمْرِهِ. وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْمُسْلِمُ مُسْلِمًا بِخُضُوعِ جَوَارِحِهِ لِطَاعَةِ رَبِّهِ

كَمَا حَدَّثَنِي الْمُثَنَّى، قَالَ: ثَنَا إِسْحَاقُ، قَالَ: ثَنَا ابْنُ أَبِي جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ الرَّبِيعِ: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ} [البقرة: ١١٢] يَقُولُ: «أَخْلَصَ لِلَّهِ»

وَكَمَا قَالَ زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ الْمُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالَا

يَعْنِي بِذَلِكَ: اسْتَسْلَمَتْ لِطَاعَةِ مَنِ اسْتَسْلَمَ لِطَاعَتِهِ الْمُزْنُ وَانْقَادَتْ لَهُ.

وَخَصَّ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِالْخَبَرِ عَمَّنْ أَخْبَرَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ} [البقرة: ١١٢] بِإِسْلَامِ وَجْهِهِ لَهُ دُونَ سَائِرِ جَوَارِحِهِ؛ لِأَنَّ أَكْرَمَ أَعْضَاءِ ابْنِ آدَمَ وَجَوَارِحِهِ وَجْهُهُ، وَهُوَ أَعْظَمُهَا عَلَيْهِ حُرْمَةً وَحَقًّا، فَإِذَا خَضَعَ لِشَيْءٍ وَجْهُهُ الَّذِي هُوَ أَكْرَمُ أَجْزَاءِ جَسَدِهِ عَلَيْهِ فَغَيْرُهُ مِنْ أَجْزَاءِ جَسَدِهِ أَحْرَى أَنْ يَكُونَ أَخْضَعَ لَهُ.

وَلِذَلِكَ تَذْكُرُ الْعَرَبُ فِي مَنْطِقِهَا الْخَبَرَ عَنِ الشَّيْءِ فَتُضِيفُهُ إِلَى وَجْهِهِ وَهِيَ تَعْنِي بِذَلِكَ نَفْسَ الشَّيْءِ وَعَيْنَهُ ...

وَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ: بَلَى مَنْ أَخْلَصَ طَاعَتَهُ لِلَّهِ وَعِبَادَتَهُ لَهُ مُحْسِنًا فِي فِعْلِهِ ذَلِكَ.

فجاء تأويل إسلام الوجه لله في جميع تفاسير السلف بالمعاني المذكورة، فيقولون بأنه إخلاص العبادة وإخلاص الدين وإخلاص الطاعة لله.

وزيدُ بنُ عمرٍو المذكورُ كان من الحنفاء الذين اتَّبعوا ملَّة إبراهيم، وقد عرفتَ من أقوال السلَف أنّ الحنيف هو المخلص لله.

فصل: شِعْرُ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بنِ نُفَيلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْه وذِكْرُه الإِسْلامَ قبْلَ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ

البيْتُ المذكورُ مِن شعر زيد بن عمرو تُذكر معه أبياتٌ أخرى في كتب التفسير والسيرة، كما جاء عند ابن إسحاق وابن هشام:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالًا
دَحَاهَا فَلَمَّا رَآهَا اسْتَوَتْ ... عَلَى الْمَاءِ أَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالَا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ الْمُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالًا
إِذَا هِيَ سِيقَتْ إِلَى بَلْدَةٍ ... أَطَاعَتْ فَصَبَّتْ عَلَيْهَا سِجَالًا

ففي كلّ هذه الأبيات قال أسلمت، وهذا مهمٌّ لأنّ زيد بن عمرو مات قبل نبوّة محمّد ﷺ مع أنّ النبيّ ﷺ تعرّف إليه، وشهد له بالإيمان والجنَّة بعد، وتأتي الآثار في ذلك. فهذه الأبيات من شعر الحنفاء في الجاهليّة، قبل الإسلام الخاصّ. أمّا الإسلام العامّ الذي هو التوحيد ورسالة الأنبياء كلِّهم فإنّه كان موجوداً قبل البِعثة وإن قلّ.

فزيد بن عمرو بن نفيل كان من الحنفاء الذين انتسبوا إلى دين إبراهيم عليه السلام، كما أنّ المشركين انتسبوا إليه. لكنَّ الحنفاء عرفوا التوحيد وعمِلوا به فتبرَّؤوا مِن عبادة الأصنام ومِن المشركين، ذلك مع أنّهم لم تكن عندهم آية واحدة من آيات كتاب الله! كما سيتبيّن كُلُّ ذلك في فصل خاصٍّ فيه ذكرُ خبرِ هذا الرجل الصالح، رحمه الله ورضي الله عنه.

ثمَّ يتبيّن مِن كلامه المذكور معنى كلمة الإسلام في لغة العرب، خاصّةً لأنّ هذا الشعر قيل قبل زمن الإسلام.

(باب) فِي أنَّ الإسلامَ هُوَ الإيمانُ باللهِ والكُفرُ بالطَّاغوتِ وَهُوَ الكُفْرُ بِعِبادَةِ غَيْرِ الله

فصل: قَولُه تَعالى ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)﴾ (البقرة)

جاء في تفسير مقاتل بن سليمان المتوفّى سنة ١٥٠ هـ:

> ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى﴾ يَقُولُ أَخَذَ الثقة يعني الْإِسْلام التي ﴿لَا انْفِصامَ لَها﴾ يقول لا انقطاع له دون الجنّة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لقولهم ﴿عَلِيمٌ﴾ به

وروى ابن أبي حاتم في التفسير قال:

> عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوثْقَى قَالَ: لَا إِلَهَ إِلا اللَّهُ. وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، مِثْلُهُ.

> وَرُوِيَ عَنِ السُّدِّيِّ: الإِسْلامُ

وروى الطبري في آية البقرة:

> عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَوْلُهُ: فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

> ... عَنِ الضَّحَّاكِ: فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى مِثْلَهُ

وأما الوجوه الأخرى التي يذكرها أمثال ابن أبي حاتم عن السلف، فهِيَ كلُّها أمثلة متداخلة المعنى ترجع إلى أمر واحد، وهذا ما يسمَّى باختلاف التنوّع وهو كثير جدّاً في تفسير السلف وهو عادتهم فيه. فليس هذا من قبيل اختلاف التضادّ.

ومِن ذلك أنّه يُذكر أنّ العُروة الوثقى فسِّرت مِن قِبَلِ السلف بمعنى (الْقُرْآنُ) و(الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ) و(الإِيمَانُ)، وهي كلُّها معانٍ أصيلةٌ لا سبيل لإسلام المَرْءِ إلا بها.

وعند الطبري في تفسير هذه الآية:

> ... عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عُقْبَةَ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ: أَنَّهُ عَادَ مَرِيضًا مِنْ جِيرَتِهِ فَوَجَدَهُ فِي السُّوقِ وَهُوَ يُغَرْغِرُ لَا يَفْقَهُونَ مَا يُرِيدُ، فَسَأَلَهُمْ: «يُرِيدُ أَنْ يَنْطِقَ؟» قَالُوا: نَعَمْ، يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ: آمَنْتُ بِاللَّهِ وَكَفَرْتُ بِالطَّاغُوتِ،
>
> قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: «وَمَا عِلْمُكُمْ بِذَلِكَ؟» قَالُوا: لَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُهَا حَتَّى انْكَسَرَ لِسَانُهُ، فَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَنْطِقَ بِهَا،
>
> فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: «أَفْلَحَ صَاحِبُكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٥٦]»

فصل: قَوْلُه تَعالى ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾

قال تعالى في سورة لقمان:

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢)﴾

جاء في تفسير يحي بن سلام:

> قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ} أَيْ: وِجْهَتَهُ فِي الدِّينِ.
>
> وَقَالَ السُّدِّيُّ: يُخْلِصُ دِينَهُ.
>
> {وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى} لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ.

وروى الطبري في هذه الآية قال:

> عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، {وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى} [لقمان: ٢٢] قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

(باب) فِي أَنَّ تَوحِيدَ العِبادَةِ حَقُّ اللهِ علَى العِبادِ وأَنَّ الحُنَفاءَ عَرَفُوا ذَلِكَ قَبْلَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ

فصل: قَولُ النَّبِيِّ ﷺ (إِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)

• أخرج البخاريّ ووافقه عليه مسلم عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

> كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ فَقَالَ يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ قَالَ لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا

وفي رواية لمسلم:

> قَالَ أَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ.

فصل: حَدِيثُ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ وإنْكارُ الحُنَفاءِ لِلشِّركِ قَبْلَ نُبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ

عند مسلم:

> قَالَ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا جُرَءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ فَقُلْتُ لَهُ مَا أَنْتَ قَالَ أَنَا نَبِيٌّ فَقُلْتُ وَمَا نَبِيٌّ قَالَ أَرْسَلَنِي اللَّهُ فَقُلْتُ وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ قَالَ أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ وَأَنْ يُوَحَّدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ قُلْتُ لَهُ فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا قَالَ حُرٌّ وَعَبْدٌ قَالَ وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ فَقُلْتُ إِنِّي مُتَّبِعُكَ

فالحنفاء كانوا على الإسلام العامِّ ملَّةِ إبراهيم. تدبَّر، هؤلاء لم تكن عندهم آيةٌ مِن القرآن. إنّهم عرفوا دين الإسلام وأنّه إخلاص العبادة لله وحده من بَقايا مِلَّة إبراهيم. فما بِأناسٍ اليومَ لا يعرفون دين الله والقرآنُ يُتلى عليهم في اللَّيل والنَّهار؟!

(باب) معرِفةُ مُشْرِكِي العَرَبِ والعَجَمِ مَعنَى الشَهادةِ وفَهْمُهم لِما خاطَبَهم بِهِ الأَنْبياءُ عليهم السلام

فصل: المُشرِكون فهِمُوا مَعنَى لا إلٰه إلا اللهُ عِندَما دَعاهم الأَنبِياءُ إلى الإسلام

يتَّضح مِن آياتٍ كثيرة في القرآن أنَّ المشركين أنفسَهم فهِموا مِن قول لا إلٰه إلا الله وجوبَ البراءةِ مِن المشركين، لأنّهم فهِموا معنى رسالة الأنبياء أيْ فهموا الإسلام العامَّ والخطابَ الموجَّهَ إليهم.

كما قال نوحٌ عليه السلام لقومه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩)﴾ (الأعراف)

فأجابوا: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣)﴾ (نوح)

ممّا يدل دلالةً واضحةً على أنّهم فهموا معنى لا إلٰه إلا الله وأنَّ المطلوبَ منهم تركُ الآلهةِ مطلقاً وإفرادُ الله تعالى بالعبادة لأنّ الله وحدَه يستحقُّ العبادة. فلا بدّ لكلّ عاقل أن يقرَّ أنَّ المشركين فهموا أنَّ كلَّ مَن يَقبل هذه الشهادةَ فيحقّقَها علماً وعملاً أنّه ليس منهم بل أنّه خرج من دينهم خروجاً تامًّا إلى دينٍ آخرَ جديدٍ.

ومعنى ذلك أنّهم فرَّقوا تماماً بين الشرك والإسلام وبين المشرك والمسلم، هذا مع أنَّهم لم يقبلوا الإسلام لأنفسهم! فالعجيب أنَّ مِن المنتسبين إلى الإسلام اليومَ بَل مِن المتصدِّرِينَ لِتَدريسِه مَن لا يفقَهُ هذا الأمرَ فيظنّ أنَّ مَن يفعل الشرك الأكبر الصريح المجمَعَ على كونه شركاً أكبرَ قد يكون مِن المسلمين محقِّقاً لحقيقةِ الإسلام!

وقال هودٌ ﷺ لقومه: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠)﴾ (هود)

فكان جوابهم: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣)﴾ (هود)

ومثل هذا في القرآن كثير جدّاً.

وقد سبقت الإشارة إلى ما أجاب به المشركون لمّا دُعُوا إلى التوحيد.

فكلُّ المرسَلين قالوا لأقوامهم ما حكاه الله في سورة الأعراف:

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف: ٥٩ و٦٥ و٧٣ و٨٥، وهود: ٥٠ و٦١ و٨٤، والمؤمنون: ٢٣ و٣٢)

أمرُوهم بعبادة الله وحدَه وبيَّنُوا لهم أنّه لا معبودَ بحقّ غيرُه.

فأجابوا: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ (الأعراف: ٧٠)

أي: هم فهموا من لفظ الإله أنّه المعبود. والقرآن مليء بمثل هذا.

قال الطبري في معنى الآية:

> يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: قَالَتْ عَادٌ لِهُودٍ: أَجِئْتَنَا تَتَوَعَّدَنَا بِالْعِقَابِ مِنَ اللَّهِ عَلَى مَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ كَيْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَدِينَ لَهُ بِالطَّاعَةِ خَالِصًا وَنَهْجُرَ عِبَادَةَ الْآلِهَةِ وَالْأَصْنَامِ الَّتِي كَانَ آبَاؤُنَا يَعْبُدُونَهَا وَنَتَبَرَّأَ مِنْهَا؟ فَلَسْنَا فَاعِلِي ذَلِكَ وَلَا مُتَّبِعِيكَ عَلَى مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا مِنَ الْعِقَابِ وَالْعَذَابِ عَلَى تَرْكِنَا إِخْلَاصَ التَّوْحِيدِ لِلَّهِ، وَعِبَادَتِنَا مَا نَعْبُدُ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْأَوْثَانِ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ عَلَى مَا تَقُولُ وَتَعِدُ

وقال المشركون لمّا دُعوا إلى التوحيد:

﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)﴾ (ص)

قال الطبري مبيّناً:

> يَقُولُ: وَقَالَ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ الَّذِينَ قَالُوا: مُحَمَّدٌ سَاحِرٌ كَذَّابٌ: أَجَعَلَ مُحَمَّدٌ الْمَعْبُودَاتِ كُلَّهَا وَاحِدًا، يَسْمَعُ دُعَاءَنَا جَمِيعَنَا، وَيَعْلَمُ عِبَادَةَ كُلِّ عَابِدٍ عَبَدَهُ مِنَّا {إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: ٥] أَيْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ...
>
> عَنْ قَتَادَةَ، {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: ٥] قَالَ: «عَجِبَ الْمُشْرِكُونَ أَنْ دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَحْده، وَقَالُوا: يَسْمَعُ لِحَاجَاتِنَا جَمِيعًا إِلَهٌ وَاحِدٌ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ»

قد رأيتَ كيف ساق الروايةَ ويراها موافقةً لبيانِه السابق. قَصَدَ المشركون: (كيف نتوجّه جميعاً إلى الله، بل يجب أن نرفع طلباتِنا إلى الآلهة وهي تشفع لنا عند الله وترفع طلباتِنا إليه)، وبيان ذلك من عدَّةِ وجوهٍ في هذا الكتاب الذي تقرأه.

ثم ساق الطبري روايةً أخرى – وهي بمثله عند ابن أبي حاتم:

> عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا مَرِضَ أَبُو طَالِبٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَهْطٌ مِنْ قُرَيْشٍ فِيهِمْ أَبُو جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ فَقَالُوا: إِنَّ ابْنَ أَخِيكَ يَشْتِمُ آلِهَتَنَا، وَيَفْعَلُ وَيَفْعَلُ، وَيَقُولُ وَيَقُولُ، فَلَوْ بَعَثْتَ إِلَيْهِ فَنَهَيْتَهُ؛ فَبَعَثَ إِلَيْهِ،
>
> فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ الْبَيْتَ، وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَبِي طَالِبٍ قَدْرُ مَجْلِسِ رَجُلٍ، قَالَ: فَخَشِيَ أَبُو جَهْلٍ إِنْ جَلَسَ إِلَى جَنْبِ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يَكُونَ أَرَقَّ لَهُ عَلَيْهِ، فَوَثَبَ فَجَلَسَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، وَلَمْ يَجِدْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَجْلِسًا قُرْبَ عَمِّهِ، فَجَلَسَ عِنْدَ الْبَابِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو طَالِبٍ: أَيِ ابْنَ أَخِي، مَا بَالُ قَوْمِكَ يَشْكُونَكَ؟

يَزْعُمُونَ أَنَّكَ تَشْتُمُ آلِهَتَهُمْ، وَتَقُولُ وَتَقُولُ؛ قَالَ: فَأَكْثَرُوا عَلَيْهِ الْقَوْلَ، وَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا عَمِّ إِنِّي أُرِيدُهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ يَقُولُونَهَا، تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمْ بِهَا الْعَجَمُ الْجِزْيَةَ»،

فَفَزِعُوا لِكَلِمَتِهِ وَلِقَوْلِهِ، فَقَالَ الْقَوْمُ: كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ؟ نَعَمْ وَأَبِيكَ عَشْرًا؛ فَقَالُوا: وَمَا هِيَ؟ فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: وَأَيُّ كَلِمَةٍ هِيَ يَا ابْنَ أَخِي؟ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ؛ قَالَ: فَقَامُوا فَزِعِينَ يَنْفُضُونَ ثِيَابَهُمْ، وَهُمْ يَقُولُونَ: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: ٥] قَالَ: وَنَزَلَتْ مِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ إِلَى قَوْلِهِ: {لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ} [ص: ٨]

فتبيّن أنّ المشركين من العرب فهموا معنى الشهادة تمامَ الفهم لمّا خُوطبوا بها، لأنّهم تعجَّبوا مِن محمّدٍ ﷺ أنّه جعل الآلهة المعبودةَ عندهم معبوداً واحداً، وهذا يدلّ قطعاً على أنّهم فهموا ما خاطبهم به النبيُّ ﷺ، فعلموا معنى لا إلٰه إلّا الله.

فصل: مُشرِكُو العرَبِ فهِمُوا ما خاطَبَهُم بِهِ النَّبِيُّ ﷺ

فالمشركون مِن العرب كانوا يعلمون معنى الشهادة تماماً، ولذلك أبَوا أن يقولوها. والأدلّة على ذلك من القرآن والسنة وسيرة النبيّ ﷺ كثيرة جدّاً، يُذكر شيء منها في ما يأتي.

روى أحمد في مسنده قال:

عَنْ أَشْعَثَ قَالَ: حَدَّثَنِي شَيْخٌ مِنْ بَنِي مَالِكِ بْنِ كِنَانَةَ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ يَتَخَلَّلُهَا يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا»

قَالَ: وَأَبُو جَهْلٍ يَحْثِي عَلَيْهِ التُّرَابَ وَيَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا يَغُرَّنَّكُمْ هَذَا عَنْ دِينِكُمْ، فَإِنَّمَا يُرِيدُ لِتَتْرُكُوا آلِهَتَكُمْ، وَتَتْرُكُوا اللَّاتَ وَالْعُزَّى، قَالَ: وَمَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

> حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَبِيعَةَ بْنَ عِبَادٍ الدِّيلِيَّ، يَقُولُ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ بمِنًى فِي مَنَازِلِهِمْ، قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَى الْمَدِينَةِ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»
>
> قَالَ: وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ، يَقُولُ: هَذَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَدَعُوا دِينَ آبَائِكُمْ، فَسَأَلْتُ مَنْ هَذَا الرَّجُلُ؟ فَقِيلَ: هَذَا أَبُو لَهَبٍ

فَفِي الحدِيثَينِ أنَّ أبا جهل وسائرَ العرب عرَفوا ما أراد النَّبيُّ ﷺ مِنهم.

فصل: قِصَّةُ وَفاةِ أَبِي طالِبٍ

يتبيَّن ما ذُكِر أيضاً مِمّا رواه البخاريُّ عن سَعِيد بْن الْمُسَيّبِ عَنْ أَبِيهِ:

> أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي طَالِبٍ يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ
>
> فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَا وَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ} الْآيَةَ.

فالمشركان في الحديث عَلِما تماماً أنَّ أبا طالبٍ لو تلفَّظ بهذه الكلمة خرَج بذلك عن ملَّتِهم خروجاً تامّاً وبرِئ منها ورغِب عنها وأنّه في المقابل يدخل في دينٍ جديد.

وروى أحمد في هذا في المسند قال:

> فَقَالَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: تَوَفَّى الله عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ ﷺ قَبْلَ أَنْ نَسْأَلَهُ عَنْ نَجَاةِ هَذَا الْأَمْرِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قَدْ سَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَقُمْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَنْتَ أَحَقُّ بِهَا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا نَجَاةُ هَذَا الْأَمْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَبِلَ مِنِّي الْكَلِمَةَ الَّتِي عَرَضْتُ عَلَى عَمِّي، فَرَدَّهَا عَلَيَّ، فَهِيَ لَهُ نَجَاةٌ»

فصل: قِصَّةُ زَيدِ بنِ عَمرِو بنِ نُفَيْلٍ وأنَّ الحُنَفاءَ عرَفُوا مَعنَى الإسلام

لمّا خرج زيد بن عمرٍو باحثاً عن الدين لقِي عالماً يهوديًّا وعالماً نصرانيًّا، فسأل كلَّ واحدٍ منهما، فدلَّه كلُّ واحدٍ مِنهما على الحنِيفيَّة.

أخرج البخاري:

> عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ يَسْأَلُ عَنْ الدِّينِ وَيَتْبَعُهُ فَلَقِيَ عَالِمًا مِنْ الْيَهُودِ فَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِمْ فَقَالَ إِنِّي لَعَلِّي أَنْ أَدِينَ دِينَكُمْ فَأَخْبِرْنِي فَقَالَ لَا تَكُونُ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ قَالَ زَيْدٌ مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ وَلَا أَحْمِلُ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ شَيْئًا أَبَدًا وَأَنَّى أَسْتَطِيعُهُ
>
> فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ قَالَ مَا أَعْلَمُهُ <u>إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا</u> قَالَ زَيْدٌ وَمَا الْحَنِيفُ قَالَ <u>دِينُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ</u>
>
> فَخَرَجَ زَيْدٌ فَلَقِيَ عَالِمًا مِنْ النَّصَارَى فَذَكَرَ مِثْلَهُ فَقَالَ لَنْ تَكُونَ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ قَالَ مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَلَا أَحْمِلُ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَلَا مِنْ غَضَبِهِ شَيْئًا أَبَدًا وَأَنَّى أَسْتَطِيعُ
>
> فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ قَالَ مَا أَعْلَمُهُ <u>إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا</u> قَالَ وَمَا الْحَنِيفُ قَالَ <u>دِينُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ</u>

> فَلَمَّا رَأَى زَيْدٌ قَوْلَهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ ﷺ خَرَجَ فَلَمَّا بَرَزَ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنِّي عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ

فزيد بن عمرٍو فهِم معنى لا إله إلا الله، بل العالمُ مِن اليهود والعالمُ من النصارى عَلِما معنى التوحيد وأنَّه مِلَّة إبراهيم.

روى أحمد في مسنده عن سعيد بن زيد، وهو ابنُه:

> قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أَبِي كَانَ كَمَا قَدْ رَأَيْتَ وَبَلَغَكَ، وَلَوْ أَدْرَكَكَ لآمَنَ بِكَ وَاتَّبَعَكَ، فَاسْتَغْفِرْ لَهُ، قَالَ: «نَعَمْ، فَأَسْتَغْفِرُ لَهُ، فَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ»

وهذه اللفظة رواها كثيرٌ مِن الأئمَّة في مصنَّفاتِهم في الحديث والعقيدة، مِنهم أبو بكر الآجرِّي في الشريعة، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني وبوّب له بقوله:

> وَمِنْ ذِكْرِ زَيْدِ بْنِ نُفَيْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

> عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَانَ يَسْتَقْبِلُ الْكَعْبَةَ وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ إِلَهِي إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ، وَدِينِي دِينُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيُصَلِّي وَيَسْجُدُ، قَالَ: وَقَالَ: «ذَاكَ أُمَّةٌ وَحْدَهُ، يُحْشَرُ بَيْنِي وَبَيْنَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ»

وبوَّب له ابن منده في كتاب الإيمان بقوله:

> ذِكْرُ اسْتِدْلَالِ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ وَلَمْ يَأْتِهِ رَسُولٌ

ثُمَّ دلَّ حديثُ أسماءَ الذي بعد القصَّة المذكورةِ عند البخاريِّ مباشرةً على أنَّ زيداً لمَّا دخل في دين الحنفاء وخرج من دين عبدة الأوثان عرَف المسلمَ مِن المشركِ، أيْ فرَّق

بينهما وبرِئ مِن المشركين ودينِهم وعرَف أنَّ هؤلاء جميعاً على دينٍ آخرَ غيرِ دينِ إبراهيمَ، مع انتسابهم إليه، فَتَنَبَّهْ:

> وَقَالَ اللَّيْثُ كَتَبَ إِلَيَّ هِشَامٌ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ رَأَيْتُ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ قَائِمًا مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ يَقُولُ يَا مَعَاشِرَ قُرَيْشٍ وَاللَّهِ مَا مِنْكُمْ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ غَيْرِي وَكَانَ يُحْيِي الْمَوْءُودَةَ يَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ ابْنَتَهُ لَا تَقْتُلْهَا أَنَا أَكْفِيكَهَا مَئُونَتَهَا فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا تَرَعْرَعَتْ قَالَ لِأَبِيهَا إِنْ شِئْتَ دَفَعْتُهَا إِلَيْكَ وَإِنْ شِئْتَ كَفَيْتُكَ مَئُونَتَهَا.

وفي رواية له في سيرة ابن إسحاقَ وسيرة ابن هشامٍ:

> لَقَدْ رأيتُ زيدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْل شَيْخًا كَبِيرًا مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ ... ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ لَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَيَّ الْوُجُوهِ أَحَبُّ إِلَيْكَ عبدتُك بِهِ، وَلَكِنِّي لَا أَعْلَمُهُ[٨]، ثُمَّ يَسْجُدُ عَلَى رَاحَتِهِ.

ومن عظيم الجهل أن يُظَنَّ أنَّ مشرِكي العربِ في زمنِ النَّبيِّ ﷺ كانوا لا يعرفون الله البتّة أو لا يعبدونه، بل لفظ الشركِ بيِّنٌ في أنَّهم آمنوا بوجود الله وعبَدوه، لكنَّهم أشركوا معه في العبادة غيرَه. ومعلومٌ أنهم انتسبوا إلى دينِ إبراهيمَ وافتخَروا بِالبَيتِ، والنُّصوص الدالَّةُ على هذا لا تحصى، وقد سبق كثيرٌ منها.

---

[٨] وهذا الحديث يدلُّ على ما ذكِر في مواضعَ من هذا الكتابِ أنَّ مَن لم يعلم العباداتِ وتفاصيلَها وكيفيَّتَها فهو معذورٌ بجهله لأنَّ مثل ذلك لا سبيلَ إلى علمه إلَّا بالسَّمْعِ أيْ بَعْدَ قِيام الحجَّة بِبُلوغِ النصِّ الشرعيِّ إليه. هذا، مع كونِ الأمر المذكور أبيَنَ مِن أن يحتاج إلى أن يُستَدَلَّ عليه بِدليلٍ خاصّ.

وروَى البخاريُّ في الصَّحيح قال:

> **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَيْلَكُمْ، قَدْ قَدْ» فَيَقُولُونَ: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ، يَقُولُونَ هَذَا وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ**

فمَن فهِم معنى الشهادة عرف ما فهِمه الحنيفُ مِن هذا الذي بلغه من الرسالة، وليس بيْنَ يديهِ آيةٌ واحدةٌ مِن القرآن! فقَد رأيتَ أنَّ الرَّجل مِن أهل الفترة الذي لم يبلُغْهُ إلّا الإسلام العامُّ أيْ معنى لا إلٰه إلّا الله فهِم هذا المعنى![٩]

وتدبّر حديثَ عمرو بن عبسةَ الحنيفِ الذي سبق ذكره، فإنه لم يكن يعلم أنّ الإسلام هو إخلاص العبادة علماً نظريًّا فحسبُ، بل كان يعلم جيِّداً كغيرِه من الحنفاء مَن هو على دينِه ومَن ليس على دينِه. لذا قال «**أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ**».

---

[٩] لا شكّ أنّ ما يزيد على ذلك من شرائع الإسلام من الأمور التي لا تثبتُ إلا بالسَّمع ليس ممّا لا بدّ منه لتحقيق الإسلام، وأنّى لهؤلاء الحنفاءِ الدَّليلَ عليه إن لم يسمعوه مِن الخبر الثابت عن الله ورسلِه عليهم السلام.

أي حتّى لو أمكن أن يعلم المَرْءُ شيئاً من هذه الأمور بالنظر والاستدلال، ليس معناه أن يكون واجباً عليه وجوباً شرعيّاً حتَّى يأتي النصُّ الذي ذُكر فيه هذا الأمر صريحاً.

وهذا أصل عظيم عند أهل السنة والجماعة، يفارقون به أهل البدعة المفتونين بالفلسفة، ولكنّه ينبغي أن يُفهم على حقيقةِ قولِ أهل السُّنّةِ الأوَّلِينَ، وهذا بحثٌ آخرُ يَنبَغي أن يُهتمَّ به في غيرِ هذا المكان.

فصل: جَمِيعُ الأنبِياءِ وأَتْباعِهِم عَرَفُوا المُسلمَ مِن المُشْرِكِ وبَرِئُوا مِن المُشرِكِين

قد بيَّن الله تعالى أنَّ جميع الأنبياء تبرَّؤُوا مِن أقوامِهم، فقال سبحانه:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦)﴾ (الممتحنة)

فمَن كان يرجو اللهَ واليومَ الآخِرَ فَعَليهِ أنْ يقتدِيَ بإبراهيمَ ﷺ ومَن معه في الكفر بعُبَّاد الطاغوت والبراءةِ منهم.

روَى الطبري:

> قَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ} [الممتحنة: ٤] قَالَ: الَّذِينَ مَعَهُ الْأَنْبِيَاءُ

وقال الطبري مبيِّناً:

> {حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} [الممتحنة: ٤] يَقُولُ: حَتَّى تُصَدِّقُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ، فَتُوَحِّدُوهُ، وَتُفْرِدُوهُ بِالْعِبَادَةِ. ...
>
> وَقَوْلُهُ: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الممتحنة: ٦] يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ قُدْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ إِبْرَاهِيمُ وَالَّذِينَ مَعَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ

صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَالرُّسُلِ. {لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ} [الأحزاب: ٢١] يَقُولُ: لِمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ، وَثَوَابَ اللَّهِ، وَالنَّجَاةَ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ.

وَقَوْلُهُ: {وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [الحديد: ٢٤] يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَمَنْ يَتَوَلَّ عَمَّا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ وَنَدَبَهُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَمِنْ غَيْرِكُمْ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ وَأَدْبَرَ مُسْتَكْبِرًا، وَوَالَى أَعْدَاءَ اللَّهِ، وَأَلْقَى إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ عَنْ إِيمَانِهِ بِهِ، وَطَاعَتِهِ إِيَّاهُ، وَعَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ، الْحَمِيدُ عِنْدَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِأَيَادِيهِ، وَآلَائِهِ عِنْدَهُمْ.

فإنّ الأنبياء جاؤُوا أقوامهم وكان أوّل ما فعلوا أن أظهروا لهم البراءة كما دلّ عليه ظاهر آية الممتحنة أنّ إبراهيم ﷺ تبرَّأ منهم قبل أن تبرَّأ مِن آلهتهم. وتقديم البراءة من العابدين على المعبودات تأكيدٌ شديد لوجوب البراءة من المشركين ولأهميَّتِها وشدَّةِ تعلُّقِها بلا إلٰه إلا الله. وقد رأيتَ أنَّ هذا دينُ جميع الأنبياء والرسل.

ثم بيّن الله تعالى أنّ المَرْءَ إن كان يرجو الله واليوم الآخر فلا بدّ أن يتأسّى بهذه الأسوة الحسنة، أمّا مَن كان لا يرجو الله واليوم الآخر وتولَّى فالله غنيٌّ عنه: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦)**﴾ وفي كلّ هذا دلالة واضحة على أن الأنبياء وأتباعهم عرفوا المشركين وفرَّقوا بينَهم وبينَ المسلمين وبِناءً على هذا العِلم تبرَّؤوا مِن أهل الشرك.

فصل: اشْتِراطُ النَّبيِّ ﷺ البراءةَ مِنَ المشركِ والكافرِ على المَرْءِ عِندَ أوَّلِ دُخولِه في الإسلام

روَى أحمد في المسند:

أَنَّ جَرِيرًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اشْتَرِطْ عَلَيَّ، قَالَ: «تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُصَلِّي الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَنْصَحُ الْمُسْلِمَ، وَتَبْرَأُ مِنَ الْكَافِرِ»

ورواه الطبراني في الكبير قال:

> عَنْ جَرِيرٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ اشْتَرِطْ عَلَيَّ فَإِنَّكَ أَعْلَمُ، قَالَ: «اعْبُدِ اللهَ لَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَنْصَحُ الْمُسْلِمَ، وَتَبْرَأُ مِنَ الْكَافِرِ»

وفي رواياتٍ عند أحمدَ وغيرِه: (وَعَلَى فِرَاقِ الْمُشْرِكِ) و(وَيُفَارِقَ الْمُشْرِكَ)

وبوَّب له النَسائيُّ بقوله: (الْبَيْعَةُ عَلَى فِرَاقِ الْمُشْرِكِ) ثم ساق الحديث:

> عَنْ جَرِيرٍ، قَالَ: «بَايَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ، وَعَلَى فِرَاقِ الْمُشْرِكِ»

وأوردَه أبو بكر الخلّال في السنَّة.

فكما ترى قد بيّن له النبيُّ ﷺ البراءة من المشرك عند أوَّل دخولِه في الإسلام، بل أوجبَها، بل اشترَطَها عليْه، فاعجبْ ممَّنْ يريدُ أن يدفع ذلك.

فصل: لا يَقبَلُ اللهُ عَمَلاً حتَّى يُفارِقَ المُشرِكينَ إلى المُسلِمين

وانظر إلى حديث بهز بن حكيم، فيه اشتراط مفارقة المشركين إلى المسلمين لقبول الأعمال:

روى ابن ماجه في السنن:

> عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ مُشْرِكٍ أَشْرَكَ بَعْدَمَا أَسْلَمَ عَمَلًا، حَتَّى يُفَارِقَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ»

وجاء الحديث عند أحمدَ – وبمثله عند النسائي – مُطَوَّلاً:

> عَنْ بَهْزٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ جَدِّي قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ وَاللهِ مَا أَتَيْتُكَ حَتَّى حَلَفْتُ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِ أُولَاءِ، وَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى أَنْ لَا آتِيَكَ، وَلَا آتِيَ دِينَكَ، وَإِنِّي قَدْ جِئْتُ امْرَأً لَا أَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللهُ وَرَسُولُهُ، وَإِنِّي أَسْأَلُكَ بِوَجْهِ اللهِ بِمَ بَعَثَكَ رَبُّنَا إِلَيْنَا؟
>
> قَالَ: «بِالْإِسْلَامِ». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا آيَةُ الْإِسْلَامِ؟
>
> قَالَ: «أَنْ تَقُولَ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَتَخَلَّيْتُ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَكُلُّ مُسْلِمٍ عَلَى مُسْلِمٍ مُحَرَّمٌ أَخَوَانِ نَصِيرَانِ لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ مُشْرِكٍ يُشْرِكُ بَعْدَمَا أَسْلَمَ عَمَلًا، أَوْ يُفَارِقُ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مَا لِي أُمْسِكُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، أَلَا إِنَّ رَبِّي دَاعِيَّ وَإِنَّهُ سَائِلِي: «هَلْ بَلَّغْتَ عِبَادِي؟» وَأَنَا قَائِلٌ لَهُ: «رَبِّ قَدْ بَلَّغْتُهُمْ» أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الْغَائِبَ، ...» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا دِينُنَا. قَالَ: «هَذَا دِينُكُمْ وَأَيْنَمَا تُحْسِنْ يَكْفِكَ»

ففي الحديث أنَّ الله لا يقبل مِمَّن دخل في دين الإسلام عملاً حتَّى يفارق المشركين إلى المسلمين، وقال في آخرِ الحديث (**هَذَا دِينُكُمْ**) وكان جواباً عن سؤاله (**وَمَا آيَةُ الْإِسْلَامِ؟**) أي علامته، وقوله بعد ذلك (**قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا دِينُنَا**). فإن قيل لعلَّ هذا في مفارقة المشركين إلى المسلمين بالبَدَنِ ويكون ذلك بالهِجْرة إليهم، وهذه لا يكفُرُ تارِكُها وإن كان آثماً، قيل: فهو في مفارقة المشركين إلى المسلمين بالعقيدة والقلب آكدُ وآكدُ، وهل يظنُّ عاقلٌ أنّ مَن لم يفارق دِينَهم في القَلب دخلَ في دين الإسلامِ عِلماً وقصداً وعملاً؟!

ثم تذكَّر أنَّ فراق المشرك جاء مفسَّراً في رواياتٍ بالبراءة مِن الكافر في حديثِ جريرٍ السابقِ ذكرُه، فهَلْ يظنُّ ظانٌّ أنَّ مَن لم يفارقْهم بالعقيدة وظنَّ أنَّه لم يزَلْ معَهم على دينٍ واحدٍ أنّ

مثل هذا قد حَقَّق ما طُلِب مِنه في دين الإسلام أصلاً؟ وأين عقلُ مَن يريدُ أنْ يدفعَ ما ذُكِرَ هنا بالتلاعُباتِ الكلاميَّة؟

فصل: فِي أنَّ أصلَ البراءةِ هُوَ نَفْيُ الإسلامِ عَنِ المُشركِ وهذا يَكونُ عَنْ علمٍ وأنَّ الإحسانَ إلى المشركِ لا يُناقِضُ أَصْلَ البراءَة

المرادُ بالبراءة هاهنا مِن حيثُ الأصلُ أنْ يُخرِجَ المسلمُ المشركَ عن دينِه فيَنفِيَ عنه وصفَ الإسلام واسمَه، أمّا أنْ يَصِلَ الرَحِمَ أو يُحسِنَ إلى الجار وغيرُ ذلك بعدَ أنْ جزَم بأنّه ليس مسلماً فليس هذا مراداً هنا.

ولا يُخالف من له علمٌ بالكتاب والسنة أنّ مِثلَ هذا الإحسانِ إلى الكافرِ لا يُنافي أصلَ الإيمان، كما يتبيَّن من الآيات التي بعد المذكورة سابقاً:

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)﴾ (الممتحنة)

قال الطبري في هذه الآيات:

> يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ} [الممتحنة: ٨] مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ {وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ} [الممتحنة: ٨] يَقُولُ: وَتَعْدِلُوا فِيهِمْ بِإِحْسَانِكُمْ إِلَيْهِمْ، وَبِرِّكُمْ بِهِمْ. ...
>
> وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: عُنِيَ بِذَلِكَ: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ} [الممتحنة: ٨] مِنْ جَمِيعِ أَصْنَافِ الْمِلَلِ وَالْأَدْيَانِ أَنْ تَبَرُّوهُمْ

> وَتَصِلُوهُمْ، وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَمَّ بِقَوْلِهِ: الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ جَمِيعَ مَنْ كَانَ ذَلِكَ صِفَتَهُ، فَلَمْ يُخَصِّصْ بِهِ بَعْضًا دُونَ بَعْضٍ، وَلَا مَعْنَى لِقَوْلِ مَنْ قَالَ: ذَلِكَ مَنْسُوخٌ، لِأَنَّ بِرَّ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ مِمَّنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ قَرَابَةُ نَسَبٍ، أَوْ مِمَّنْ لَا قَرَابَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ وَلَا نَسَبٌ غَيْرُ مُحَرَّمٍ وَلَا مَنْهِيٍّ عَنْهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ لَهُ، أَوْ لِأَهْلِ الْحَرْبِ عَلَى عَوْرَةٍ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، أَوْ تَقْوِيَةٌ لَهُمْ بِكُرَاعٍ أَوْ سِلَاحٍ. قَدْ بَيَّنَ صِحَّةَ مَا قُلْنَا فِي ذَلِكَ الْخَبَرُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ عَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فِي قِصَّةِ أَسْمَاءَ وَأُمِّهَا

ومن فسَّر هذه الآيات بمعانٍ أُخَرَ مِن أهل التفسير لا يقصِد أنَّ كُلَّ إحسانٍ إلى المشرك في كلِّ زمانٍ وكلِّ مكانٍ محرَّمٌ وأنَّه مناقضٌ لأصل البراءة، إذ هذا لا يقوله إلا جاهل ضالّ. وما قيل هنا فهو من باب الإشارة إذ ليس الأمر المشار إليه محلَّ هذا البحث.

فصل: الشَّيطانُ يَبْرَأُ مِن إشراكِ المُشْرِكينَ إيَّاه مَعَ اللهِ يومَ القِيامةِ وعلاقَةُ ذلكَ بِآيةِ المْتَحنَة

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ (إبراهيم)

أي إنّ الشيطان يتبيَّن له في ذلك الموقف أنَّ الإصرار على ما هو عليه مِن دعوة الناس إلى عبادتِه وإلى ترك عبادة الله والإشراك به يوجب له العذابَ لا محالة، فيحاول أن يتبرَّأ من كلِّ من أطاعه وأشركه بالله براءةً تامَّة، وفي القرآن أنّه لا يجد لهذه البراءة في هذا الموقف الشديد إلا أن يقول: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾ (إبراهيم)

قال الطبري في التفسير:

> {إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ} [إبراهيم: ٢٢] يَقُولُ: إِنِّي جَحَدْتُ أَنْ أَكُونَ شَرِيكًا لِلَّهِ فِيمَا أَشْرَكْتُمُونِي فِيهِ مِنْ عِبَادَتِكُمْ مِنْ قَبْلُ فِي الدُّنْيَا

> قَالَ: ثنا دَاوُدُ، عَنْ عَامِرٍ، فِي هَذِهِ الْآيَةِ: {مَا أنا بِمُصْرِخِكُمْ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ} [إبراهيم: ٢٢] قَالَ: «خَطِيبَانِ يَقُومَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِبْلِيسُ، وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ،
>
> فَأَمَّا إِبْلِيسُ فَيَقُومُ فِي حِزْبِهِ فَيَقُولُ هَذَا الْقَوْلَ، وَأَمَّا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُ: {مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ، أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [المائدة: ١١٧]»

وروى بعده، وبمثله ابن أبي حاتم في التفسير، قالا:

> عَنِ الْحَسَنِ، فِي قَوْلِهِ: {وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ} [إبراهيم: ٢٢] قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، قَامَ إِبْلِيسُ خَطِيبًا عَلَى مِنْبَرٍ مِنْ نَارٍ، فَقَالَ: ... {إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ} [إبراهيم: ٢٢] قَالَ: بِطَاعَتِكُمْ إِيَّايَ فِي الدُّنْيَا»

ولا شكّ أنّ الشيطان – عليه لعنة الله – لو وجد كلمة تعبِّر عن البراءة من إشراك الناس إيّاه بالله أشدَّ من الكفر بعبادتهم، لاختارها ليكون أدلَّ على المقصود. وهذا يوضِّح لك أنَّ الكفر بالمشركين الذي أمَرَنا الله تعالى به هو أشدُّ ما يكون من البراءة.

وفي ذلك دلالة قويَّة على معنى البراءة في قول الأنبياء للمشركين من أقوامهم ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾.

ومِن الناس مَن يريدون التلاعبَ بآية الممتحنة، يزعمون أنَّ الذي فيها ليس وصفاً لِما لا بدَّ منه في دينِ جميع الأنبياء مِن العلم الفارِق بينَ المسلم والمشرك. وهذه الأقاويل العجيبة ليس هنا محلَّ ردِّها، لكن لا يستريب من عرف كلام السلف أنَّ الآية تُبيِّن أساسَ دينِ الأنبياء جميعاً.

ولازمُ ذلك القولِ الباطلِ ضرورةً أنَّ المسلم يكفِيه أن يفارق عبادةَ الأوثان بِنفسِه ليكونَ مسلماً، وإن اعتقد أنَّه هو ومَن عبَد الأوثانَ على دينٍ واحدٍ، ويُعتَذرُ له – بِزعمِ هؤلاء – بأنَّه عند دخولِه في الإسلام لم يَعرف الآياتِ الآمرةَ بالبراءة مِن المشركين، فلا بأسَ، لأنّه حقّقَ الإسلام بمجرّد أن يترك هو نفسُه الشركَ، وإن لم يعلم أن عبّاد الأوثان على دينٍ آخرَ! يقولون يعتذر له لأنَّه اشتبَهَتْ عليه بعضُ الأمورِ فَحَكَمَ لعابدِ الوثَنِ بالإسلام.

فيقال: يُعتذر له بأن اشتبهَ عليه ماذا؟ أنَّ عبادةَ الأوثان منافيةٌ للإسلام؟ ولا يُنسى هاهنا أنَّنا في معرِض الكلام على الشرك الأكبر الصريح، لا على ما يَحتمِلُ الشركَ الأكبرَ وغيرَه مِن الأعمال والأقوال! فإن اشتبهَ هذا، وهو الأصل الذي لا يثبتُ شيء إلَّا بِه، فهل بقِيَ بعدَه شيء؟

وهل يحاول مَن له عقلٌ ودينٌ أن يحمِّل كلام الله هذا المعنى تلاعباً كلاميّاً فلسفيّاً ببعضِ العِبارات في الآية بعيداً عن فهمِ كلامِ الله على مُرادِ الله ووَفقَ بيانِ السَّلف لعامَّة الآيات المبيِّنَة لمعنى توحيد العبادة؟

فعلى أمثال هؤلاء المعترِضِين أن يتركُوا مثل هذا وأن يراجعوا أنفسَهم وأن يبحَثوا عن معاني القرآن في مظانِّها بحثاً صادقاً، عسى الله أن يوفِّق المَرْءَ إذا فعل ذلك، وبالله تعالى التوفيق.

فصل: قَولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ عَنْ إبراهيمَ عليه السلام ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وعَنْ نَبيِّنا مُحَمّدٍ ﷺ مثلَه

قال تعالى في سورة البقرة:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥)﴾

وفي آل عمران:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)﴾

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)﴾

وفي سورة الأنعام:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾

وفي سورة النحل:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)﴾

وقال بِصيغةٍ أخرى في سورة الأنعام:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي

شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١)﴾

قال الطبري:

{إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} وَهَذَا خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ وَعَرَفَهُ، شَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ، وَأَظْهَرَ خِلَافَ قَوْمِهِ أَهْلِ الْبَاطِلِ وَأَهْلِ الشِّرْكِ بِاللَّهِ، وَلَمْ يَأْخُذْهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَلَمْ يَسْتَوْحِشْ مِنْ قِيلِ الْحَقِّ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ، مَعَ خِلَافِ جَمِيعِ قَوْمِهِ لِقَوْلِهِ وَإِنْكَارِهِمْ إِيَّاهُ عَلَيْهِ،

وَقَالَ لَهُمْ: يَا قَوْمِ، إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مَعَ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَنِي وَخَلَقَكُمْ فِي عِبَادَتِهِ مِنْ آلِهَتِكُمْ وَأَصْنَامِكُمْ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي فِي عِبَادَتِي إِلَى الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، الدَّائِمِ الَّذِي يَبْقَى وَلَا يَفْنَى، وَيُحْيِي وَيُمِيتُ، لَا إِلَى الَّذِي يَفْنَى وَلَا يَبْقَى، وَيَزُولُ وَلَا يَدُومُ، وَلَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ.

ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ تَعَالَى ذِكْرُهُ أَنَّ تَوْجِيهَهُ وَجْهَهُ لِعِبَادَتِهِ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَالِاسْتِقَامَةِ فِي ذَلِكَ لِرَبِّهِ عَلَى مَا يَجِبُ مِنَ التَّوْحِيدِ، لَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُوَجِّهُ لَهُ وَجْهَهُ مَنْ لَيْسَ بِحَنِيفٍ، وَلَكِنَّهُ بِهِ مُشْرِكٌ، إِذْ كَانَ تَوْجِيهُ الْوَجْهِ لَا عَلَى التَّحْنِيفِ غَيْرُ نَافِعٍ مُوَجِّهَهُ بَلْ ضَارُّهُ وَمُهْلِكُهُ.

{وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٧٩] يَقُولُ: وَلَسْتُ مِنْكُمْ أَيْ لَسْتُ مِمَّنْ يَدِينُ دِينَكُمْ، وَيَتَّبِعُ مِلَّتَكُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ. وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ كَانَ ابْنُ زَيْدٍ يَقُولُ

> ... قَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ لِإِبْرَاهِيمَ: تَرَكْتَ عِبَادَةَ هَذِهِ؟ فَقَالَ: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ}، فَقَالُوا: مَا جِئْتَ بِشَيْءٍ وَنَحْنُ نَعْبُدُهُ وَنَتَوَجَّهُهُ، فَقَالَ: لَا، {حَنِيفًا} [الأنعام: ٧٩] قَالَ: مُخْلِصًا، لَا أُشْرِكُهُ كَمَا تُشْرِكُونَ

وكذلك في سورة يوسف:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)﴾

قال الطبري في تفسير الآية:

> {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: ١٠٨] يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: {قُلْ} يَا مُحَمَّدُ {هَذِهِ} الدَّعْوَةُ الَّتِي أَدْعُو إِلَيْهَا، وَالطَّرِيقَةُ الَّتِي أَنَا عَلَيْهَا مِنَ الدُّعَاءِ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ دُونَ الْآلِهَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَالِانْتِهَاءِ إِلَى طَاعَتِهِ وَتَرْكِ مَعْصِيَتِهِ {سَبِيلِي} وَطَرِيقَتِي وَدَعْوَتِي {أَدْعُو إِلَى اللَّهِ} وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ {عَلَى بَصِيرَةٍ} بِذَلِكَ وَيَقِينِ عِلْمٍ مِنِّي بِهِ، {أَنَا وَ} يَدْعُو إِلَيْهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَيْضًا {مَنِ اتَّبَعَنِي} وَصَدَّقَنِي وَآمَنَ بِي
>
> {وَسُبْحَانَ اللَّهِ} يَقُولُ لَهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَقُلْ تَنْزِيهًا لِلَّهِ وَتَعْظِيمًا لَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ، أَوْ مَعْبُودٌ سِوَاهُ فِي سُلْطَانِهِ، {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} يَقُولُ: وَأَنَا بَرِيءٌ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ بِهِ، لَسْتُ مِنْهُمْ، وَلَا هُمْ مِنِّي. وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ

فهذا أيضاً واضح في الدلالة على أنَّ دينَ جميعِ الأنبياء لا بدَّ فيه مِن العلم الفاصل بين المسلم والمشرك والبراءةِ من المشركين. ذلك أنّ الله تعالى عِدَّةَ مرَّاتٍ في القرآن بيّن دينَ إبراهيم وختَمه دائماً بوَصفِ إبراهيمَ بمثل قولِه ﴿**وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾.

ثُمَّ أمر الله تعالى نبيَّنا محمّداً ﷺ باتّباع ملَّة إبراهيم كما سبق بقوله ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾.

وكان يكفي ذلك في بيان أنّنا أُمرنا أن لا نكون من المشركين، لكنّ الله تعالى بيّنه مرةً أخرى تصريحاً، فأمر نبيَّنا محمّداً ﷺ أن يقول ذلك القولَ كما قاله إبراهيمُ عليه السلام، فقال كما سبق ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وكذلك كان يكفي لِبيان المقصود أن يبيِّنه فقط مِن كلام نبيِّنا ﷺ وأن يأمره باتِّباع ملَّة إبراهيم، فيُعرف أنّ دينَ إبراهيمَ عليه السلام هو أنْ لا يكون من المشركين كما قاله محمّدٌ ﷺ، لكنَّه بيّن الأمرَينِ تصريحاً. فبيّن دينَ إبراهيم عليه السلام وبيّن دينَ محمّد ﷺ وبيّن دينَ كلِّ واحدٍ منهما بالآخر لمّا أمر أحدَهما باتّباع ملّة الآخر، وهذا تأكيدٌ شديد وبيانٌ واضح.

فصل: في تَوبَةِ المُرْتَدِّينَ بِإقرارِهِم على أَنْفُسِهِم وَمَوْتاهُم بِالكُفْر

بوّب ابن أبي شيبة في المصنَّف قال:

مَا قَالُوا فِي الرَّجُلِ يُسْلِمُ ثُمَّ يَرْتَدُّ مَا يُصْنَعُ بِهِ

... عَنْ عَاصِمِ بْنِ ضَمْرَةَ، قَالَ: «ارْتَدَّ عَلْقَمَةُ بْنُ عُلَاثَةَ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَاتَلَهُ الْمُسْلِمُونَ، قَالَ: فَأَبَى أَنْ يَجْنَحَ لِلسَّلْمِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَا يُقْبَلُ مِنْكَ إِلَّا سَلْمٌ مُخْزِيَةٌ أَوْ حَرْبٌ مُجْلِيَةٌ، قَالَ، فَقَالَ: وَمَا سَلْمٌ مُخْزِيَةٌ؟، قَالَ: «تَشْهَدُونَ عَلَى قَتْلَانَا أَنَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ وَأَنَّ قَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ، وَتَدُونَ قَتْلَانَا وَلَا نَدِي قَتْلَاكُمْ»، فَاخْتَارُوا سَلْمًا مُخْزِيَةً»

وبعدَه روَى:

عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: جَاءَ وَفْدُ بُزَاخَةَ أَسَدٍ وَغَطَفَانَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ يَسْأَلُونَهُ الصُّلْحَ، فَخَيَّرَهُمْ أَبُو بَكْرٍ بَيْنَ الْحَرْبِ الْمُجْلِيَةِ أَوِ السَّلْمِ الْمُخْزِيَةِ، قَالَ: فَقَالُوا: هَذَا الْحَرْبُ الْمُجْلِيَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا، فَمَا السَّلْمُ الْمُخْزِيَةُ؟

قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: « ... وَتَدُونَ قَتْلَانَا وَلَا نَدِي قَتْلَاكُمْ، وَقَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ، وَتَرُدُّونَ مَا أَصَبْتُمْ مِنَّا وَنَغْنَمُ مَا أَصَبْنَا مِنْكُمْ»،

فَقَالَ عُمَرُ فَقَالَ: قَدْ رَأَيْتُ رَأْيًا، وَسَنُشِيرُ عَلَيْكَ، ... وَأَمَّا أَنْ نَغْنَمَ مَا أَصَبْنَا مِنْهُمْ وَيَرُدُّونَ مَا أَصَابُوا مِنَّا فَنِعْمَ مَا رَأَيْت، وَأَمَّا أَنَّ قَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ وَقَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ فَنِعْمَ مَا رَأَيْت، وَأَمَّا أَنْ لَا نَدِيَ قَتْلَاهُمْ فَنِعْمَ مَا رَأَيْت، وَأَمَّا أَنْ يَدُوا قَتْلَانَا فَلَا، قَتْلَانَا قُتِلُوا عَنْ أَمْرِ اللَّهِ فَلَا دِيَاتٍ لَهُمْ، فَتَتَابَعَ النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ

وراه أحمد في فضائل الصحابة، قال:

عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ: لَمَّا صَالَحَ أَبُو بَكْرٍ أَهْلَ الرِّدَّةِ صَالَحَهُمْ عَلَى حَرْبِ مُجْلِيَةٍ، أَوْ سِلْمٍ مُخْزِيَةٍ قَالَ: قَدْ عَرَفْنَا الْحَرْبَ الْمُجْلِيَةَ فَمَا السَّلْمُ الْمُخْزِيَةُ؟ قَالَ: «تَشْهَدُونَ أَنْ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ، وَأَنْ قَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ، وَأَنْ تَدُوا قَتْلَانَا، وَلَا نَدِي قَتْلَاكُمْ، وَإِنَّ مَا أَصَبْنَا مِنْكُمْ، فَهُوَ لَنَا وَمَا أَصَبْتُمْ مِنَّا رَدَدْتُمُوهُ إِلَى أَهْلِهِ» . فَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

ورواه أبو بكر الخلّال في السنّة، وفيه:

إِنَّهُ قَالَ لَهُمْ: «تَشْهَدُونَ أَنَّ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ» وَمَا رَضِيَ، يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ حَتَّى شَهِدُوا

وفي روايةٍ أخرى:

وَاللَّهِ مَا رَضِيَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ مِنْ أَهْلِ الرِّدَّةِ حَتَّى شَهِدُوا أَنَّ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ، وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ

ورواه أيضا الطبرانيُّ في الأوسط.

وإن سألتَ ما وجهُ دلالتِه على ما نحن فيه، فالجواب أنَّ أبا بكر رضي الله عنه طلب منهم لِلدُّخول في الإسلام مرَّةً أخرى أن يعلَموا ويقرّوا على أنفسهم بأنَّهم كانوا كفَّاراً وأنّ مَن مات منهم على ذلك مات كافراً وهو في النار، ولم يكتفِ منهم بمجرَّد التلفُّظ بالشَّهادة، بلْ أراد أنْ يشهدُوا على قتلاهم بالنَّار.

وإن قلتَ لعلَّ بعضَ ذلك لم يكن في مَن عاد إلى عبادة الأوثان، فالجواب: نعم، كان هناك من أهل الردَّة مَن آمن بنبيٍّ بعدَ محمَّدٍ ﷺ مثلَ مَن آمن بنبوَّةِ مُسَيلِمةَ مِن بني حنِيفة، وكان منهم من عاد إلى دين الأوثان، وكان منهم من امتنع عن بعض الشرائع، فأمَّا من عاد منهم إلى عبادة الأوثان فأمرُهُ واضحٌ في أنّ الصحابة لم يشكَّ أحد أنّ هؤلاء خرَجوا مِن دينِ الإسلام وعادُوا إلى دينِ الأوثان وبِهِ يتمُّ المقصود، وأمَّا غيرُ هؤلاء فأمرُهم أخفَى فيكونَ أدلَّ على المقصود.

مثلاً مَن آمن بمُسَيلِمةَ فهؤلاء أشركوا في النبوَّة والصَّحابة لم يشكَّ أحدٌ منهم أنّ مَن هذه حالتُه أنّه كافرٌ بالله تعالى خارجٌ مِن مِلَّة الإسلام، والشركُ في العبادةِ أوضحُ، وأوْلَى وآكَدُ أن يُخرِجوا مَن وقع فيه مِن ملَّة الإسلام.

فصل: قِصَّةُ هِرَقْلَ ومَعرِفةُ أهلِ الكِتابِ والمُشرِكينَ معنَى الإسلام

بل العَجَمُ كانوا يعرفون معنى لا إله إلا الله. ففي البخاري في آخرِ حديث في كتاب بدء الوحي قال هرقل لأبي سفيانَ:

> قَالَ مَاذَا يَأْمُرُكُمْ قُلْتُ يَقُولُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ

ثم فسَّر هرقلُ جوابَه فقال:

> وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ

فإنّ هرقلَ كان يعلم تماماً أنَّ هذا الدِّينَ إنْ كان هو دينَ الله على الحقيقة، فلا بدَّ أنّه دينُ توحيد العبادة وأنّ محمّداً إنْ كان نبيّاً حقّاً، فلا بدّ أنْ يأمرَ بدين الله، بدين التوحيد في العبادة.

وكذلك أبو سفيان علِم تماماً ماذا يريد النبيُّ ﷺ منهم، وما هو الإسلام. فلو سأَل هرقل عن أحد يدّعي النُّبوّة (بمَ يأمركم) فيجيب المسْؤُول (يأمرُنا بالصلاة، فلو عبَدْنا الأوثان، وقُمنا بصلاتِه التي يأمرنا بها لَكُنّا على دينِه)، لو قيل ذلك لهرقل لعلِم قطعاً أنّ هذا المدَّعيَ مِن أعظم المفترِينَ على الله تعالى وليس نبيّاً في شيء.

ولذلك جزَم هرقلُ أنّ الذي سأل عنه هو النبيُّ حقّاً، فقال:

> فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ ...
>
> فَقَالَ هِرَقْلُ هَذَا مُلْكُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي الْعِلْمِ وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمْصَ فَلَمْ يَرِمْ حِمْصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ نَبِيٌّ

فعلِم هرقل صِدقَ النبيِّ ﷺ إلّا أنّه لم يعمَل بهذا العلم وترك اتّباع النبيّ ﷺ لمّا رأى أنّ أَتباعَه لا يوافقونه عليه. وآثَر الدُنيا على الآخرة بإيثارِه بقاءَ مُلكِه على قَبولِ الإسلام، كما جاء في آخرِ الحديث المذكور:

> فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ لَهُ بِحِمْصَ ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الرُّومِ هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ وَأَيِسَ مِنْ الْإِيمَانِ قَالَ رُدُّوهُمْ عَلَيَّ وَقَالَ إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفًا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ فَقَدْ رَأَيْتُ فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ[١٠].

فإذا فهمتَ هذا رحمك الله فهمتَ أنّ أكثرَ الخلقِ اليومَ لا يعلَمون ما هو الإسلام بخلاف المشركين والنصارى المذكورين وغيرِهم في زمنِ النبيّ ﷺ، فإنّهم فهموا معناها تماماً لكنّهم لم يعمَلوا بها. فبئس القومُ مَن كان كلُّ هؤلاءِ أعلمَ بلا إلٰه إلّا الله منهم.

وقد يقال هنا: (إنّ هرقل نفسَه كان على الشرك وعلى النصرانيّة المحرَّفَة، وربَّما لم يَفْهمْ ما يدعُو إليه محمّدٌ ﷺ حقيقةً)، وهذا بحث آخر، لكن مَن عرف قصَّته يعلم أنّ هرقل فَهِمَ تماماً معنى ما دعا النبيُّ ﷺ إليه وأنّه لم يَرُدَّه لِعَدَمِ موافقتِه عليه عِلماً واعتقاداً.

وحتَّى لو قيل إنّه كان على الشرك مِن قبلُ فظاهر الحديث أنّه لمّا سمع رسالةَ محمّدٍ ﷺ علِم أنّها دين الله والحقُّ المبينُ وأنّها النهيُ عن كلّ شرك.

وأوضح مِن ذلك ما ذكرتُ مِن شأنِ أبي سفيانَ ومشرِكي قريشٍ، فإنهم كانوا يعلمون تماماً ما هو الإسلام وكذلك قِصَّةُ النَجاشيّ الذي أسلَم، لا شكّ أنّه فهِم تماماً أنّ الإسلام هو الخلوص من الشرك وهكذا.

---

[١٠] وفي هذا الحديث أيضاً ردٌّ على بعض غلاة المرجئة والجهميَّة في هذا الزمان الذين يظنُّون أنَّ مجرَّدَ معرفةِ الحقِّ يَكفي لِصحَّة الإسلام.

فصل: قِصَّةُ النَّجاشيِّ رَحِمَه اللهُ تَعالَى ورَضِيَ عنه

قال ابن هشام في السيرة:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَمِنُوا وَاطْمَأَنُّوا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَأَنَّهُمْ قَدْ أَصَابُوا بِهَا دَارًا وَقَرَارًا، ائْتَمَرُوا بَيْنَهُمْ أَنْ يَبْعَثُوا فِيهِمْ مِنْهُمْ رَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ جَلْدَيْنِ إلَى النَّجَاشِيِّ، فَيَرُدَّهُمْ عَلَيْهِمْ، لِيَفْتِنُوهُمْ فِي دِينِهِمْ، وَيُخْرِجُوهُمْ مِنْ دَارِهِمْ، الَّتِي اطْمَأَنُّوا بِهَا وَأَمِنُوا فِيهَا، فَبَعَثُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ، وَجَمَعُوا لَهُمَا هَدَايَا لِلنَّجَاشِيِّ وَلِبَطَارِقَتِهِ، ثُمَّ بَعَثُوهُمَا إلَيْهِ فِيهِمْ ...

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ الزُّهْرِيِّ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْن الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ الْمَخْزُومِيِّ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ بِنْتِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ زَوْجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ، جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ النَّجَاشِيَّ، أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللَّهَ تَعَالَى لَا نُؤْذَى وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا، ائْتَمَرُوا بَيْنَهُمْ أَنْ يَبْعَثُوا إلَى النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ مِنْهُمْ جَلْدَيْنِ ...

فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بِطَارِقَتِهِ بِطْرِيقٌ إلَّا دَفَعَا إلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ، وَقَالَا لِكُلِّ بِطْرِيقٍ مِنْهُمْ: إنَّهُ قَدْ ضَوَى إلَى بَلَدِ الْمَلِكِ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ، لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتُمْ، وَقَدْ بَعَثَنَا إلَى الْمَلِكِ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ لِيَرُدَّهُمْ إلَيْهِمْ، فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ فِيهِمْ، فَأَشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسَلِّمَهُمْ إلَيْنَا وَلَا يُكَلِّمَهُمْ، فَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُمَا: نَعَمْ.

ثُمَّ إنَّهُمَا قَدَّمَا هَدَايَاهُمَا إلَى النَّجَاشِيِّ فَقَبِلَهَا مِنْهُمَا، ثُمَّ كَلَّمَاهُ فَقَالَا لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إنَّهُ قَدْ ضَوَى إلَى بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ، وَجَاءُوا بِدِينٍ ابْتَدَعُوهُ، لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ، وَقَدْ بَعَثَنَا إلَيْكَ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ

مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ لِتَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ. قَالَتْ: وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَمْرِو ابْنِ الْعَاصِ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ كَلَامَهُمْ النَّجَاشِيُّ.

قَالَتْ: فَقَالَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ: صَدَقَا أَيُّهَا الْمَلِكُ قَوْمُهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ فَأَسْلِمْهُمْ إِلَيْهِمَا فَلْيَرُدَّاهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ وَقَوْمِهِمْ. قَالَتْ: فَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ، ثُمَّ قَالَ: لَاهَا اللَّهِ، إِذَنْ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْهِمَا، وَلَا يَكَادُ قَوْمٌ جَاوَرُونِي، وَنَزَلُوا بِلَادِي، وَاخْتَارُونِي عَلَى مَنْ سِوَايَ، حَتَّى أَدْعُوَهُمْ فَأَسْأَلَهُمْ عَمَّا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ، فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولَانِ أَسْلَمْتُهُمْ إِلَيْهِمَا، وَرَدَدْتُهُمْ إِلَى قَوْمِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا، وَأَحْسَنْتُ جِوَارَهُمْ مَا جَاوَرُونِي.

قَالَتْ: ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَعَاهُمْ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذَا جِئْتُمُوهُ؟

قَالُوا: نَقُولُ: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَا، وَمَا أَمَرَنَا بِهِ نَبِيُّنَا ﷺ كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ. فَلَمَّا جَاءُوا، وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ، فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ سَأَلَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ: مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي قَدْ فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا (بِهِ) فِي دِينِي، وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْمِلَلِ؟

قَالَتْ: فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ)، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ،

فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ

الْمُحْصَنَاتِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ - قَالَتْ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ - فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ اللَّهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا،

فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بِلَادِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ. قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ:

فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ، قَالَتْ: فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ: «كهيعص» . قَالَتْ: فَبَكَى وَاللَّهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى اخْضَلَّتْ لِحْيَتُهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُّوا مَصَاحِفَهُمْ، حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ (لَهُمْ) النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ عِيسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، انْطَلِقَا، فَلَا وَاللَّهِ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمَا، وَلَا يُكَادُونَ

والشاهد من ذلك أنَّ النَّجاشي ومَن حوله مِن بطارقته كلُّهم عرَفوا أنّ الأمر بِعبادة الله وحده وتركِ الشرك هو دينُ الله تعالى، وفهِموا أنَّ مَن عبد الأوثان ولم يخلِص العبادةَ لله فهو على دينٍ آخر وعلِموا أنَّ المهاجِرينَ إليهم فارَقوا دينَ قومِهم المشركِينَ لمَّا شهِدوا أن لا إله إلا الله، فتنبّه.

وروى البخاري في الصحيح قال:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَعَى النَّجَاشِيَّ فِي اليَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ خَرَجَ إِلَى المُصَلَّى، فَصَفَّ بِهِمْ وَكَبَّرَ أَرْبَعًا»

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ مَاتَ النَّجَاشِيُّ: «مَاتَ اليَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ، فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَى أَخِيكُمْ أَصْحَمَةَ»

وَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ»

فصل: فِي عِظَمِ جُرْمِ مَنْ كَفَّرَ المُسْلِمِ

قال البخاريُّ رحِمه الله:

(بَاب مَنْ كَفَّرَ أَخَاهُ بِغَيْرِ تَأْوِيلٍ فَهُوَ كَمَا قَالَ)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا

وفي الحديث الذي بعده:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ أَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا

ثم قال في الباب التالي:

(بَاب مَنْ لَمْ يَرَ إِكْفَارَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ مُتَأَوِّلًا أَوْ جَاهِلًا وَقَالَ عُمَرُ لِحَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِنَّهُ مُنَافِقٌ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ قَدْ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ قَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ)

وأخرج البخاري في الأدب المفرد وأحمد وغيرهما.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ «مَنْ كَفَّرَ أَخَاهُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا»

وعند مسلم:

> عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا كَفَّرَ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا»

وبوَّب أبو عوانة في المستخرج قال:

> بَيَانُ الْمَعَاصِي الَّتِي إِذَا قَالَهَا الرَّجُلُ وَعَمِلَهَا كَانَ كُفْرًا وَفِسْقًا وَاسْتَوْجَبَ بِهَا النَّارَ

يظهر بهذه الأحاديث والروايات أنَّ تكفير المسلمِ الذي يعبُد الله ولا يشرك به شيئاً ولم يقعْ منه ما يناقضُ شهادةَ الإسلام جريمةٌ شنيعةٌ وإثمٌ كبير.

أمّا إذا أخرجه عن الإسلام لِناقضٍ مِن نواقض الإسلام، فهذا أمرٌ آخر كما لا يخفى. وإذا كان هذا الناقض أنّه يجهل معنَى التوحيدِ ويعبدُ غير الله، فهذا أولى وأظهر، لأنَّ مثلَ هذا لم يتحقَّقْ فيه الإسلامُ يوماً، وهو مِمَّا يدور حولَه هذا الكتاب. فَفِي هذه الحالةِ أخرجَه[١١] مِن الإسلام بحقٍّ ولا تشملُه هذه الأحاديثُ.

فمن أقرَّ أنّ رجلاً آخر قد حقَّق التوحيدَ لكن يرى منه ما يناقض توحيده فهو يَنفي عنه الإسلامَ لوجودِ هذا الناقضِ لا لِعَدَم تحقُّقِ التوحيدِ منه أصلاً، فَلْيُتَنَبَّهْ لذلك.

وبه يُعلَم جهْلُ من يُشَبِّهُ على الناس في مثل هذا، يريد أن يقول: (إنَّ مَن أثبتَ لعابدِ الوثنِ الإسلامَ هو كَمَنْ نفَى عن المسلِم الإسلامَ، مِثلاً بِمِثل)، وليس الأمر كذلك، وهذا لا يخفى على جُهَّال المسلمين فضلاً عمّن اشتغل بِالعِلْمِ مِنهم.

ومثالُ ذلك الخوارجُ فإنَّهم كفَّروا كثيراً من المسلمين بل مِن أفضلِ المسلمين مِن أصحاب رسول الله ﷺ، لكنّ الخوارج فهِموا معنى التوحيد في الأصل وعلِموا أنّ الصحابة رضي الله عنهم قد حقَّقوا هذا المعنى. ومشكلتهم في ظنّهم أنّ هؤلاء المسلمين

---

[١١] بمعنى أنَّه نفَى عنه الإسلامَ، لا بِمعنى أنّه أخرجَه منه بعدَ أن كان داخلاً فيه، فتنبّه.

وقَعوا في ما يناقض توحيدَهم بعد أن تحقَّق. فمَن ظنَّ أنَّ الخوارج رأَوا الإسلامَ والتوحيدَ نفسَه شركاً أو أنّهم لم يعرِفوه أصلاً فهو جاهل لم يفهم حقيقة قولهم.

وقد جاء في مصنَّف عبد الرزاق:

> أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَمَّنْ سَمِعَ الْحَسَنَ، قَالَ: لَمَّا قَتَلَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْحَرُورِيَّةَ، قَالُوا: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَكُفَّارٌ هُمْ؟ قَالَ: «مِنَ الْكُفْرِ فَرُّوا» قِيلَ: فَمُنَافِقُونَ؟ قَالَ: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا وَهَؤُلَاءِ يَذْكُرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا» قِيلَ: فَمَا هُمْ؟ قَالَ: «قَوْمٌ أَصَابَتْهُمْ فِتْنَةٌ، فَعَمُوا فِيهَا وَصمُّوا»

أمّا مَن قال للمسلم (يا كافر) ظنّاً أنّ قيامَه بالتوحيد نفسَه هو الكفر، فهذا لا يستريب في كفره أحد من المسلمين.

وبه يَفهم مَن له عقل ودين أنّ مَن حكم لعابدِ الوثن بالإسلام فمُحال أن يقال إنما تأوَّل أو اشْتَبهتْ عليه الأمور مع معرفته للإسلام في الأصل.

(باب) الإسلامُ العامُّ دِينُ الأنبياءِ جَمِيعاً

وهذا كثيرٌ جدّاً في القرآن، ويأتي إمّا تصريحاً باسم الإسلام أو بأمر الله تعالى لهم بلا إلٰه إلّا الله أو بِعبادة الله وحده أو بِترك الشرك، كما يُذكر في الفَصلَين الآتيَين.

وروى البخاري في الصحيح:

> **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»**

فشرائعُهم تختلف ودينُهم واحد وهو الإسلام العامّ، دعوةُ الناس إلى توحيد العبادة.

تماماً كما روَى ابن أبي حاتم في التفسير، ورواه بمثله الطبري، قال ابن أبي حاتم:

> عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلَهُ: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة: ٤٨] قَالَ: الدِّينُ وَاحِدٌ وَالشَّرَائِعُ مُخْتَلِفَةٌ
>
> عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلَهُ: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة: ٤٨] يَقُولُ: سَبِيلًا وَسُنَّةً، وَالسُّنَنُ مُخْتَلِفَةٌ فِي التَّوْرَاةِ شَرِيعَةٌ، وَلِلْإِنْجِيلِ شَرِيعَةٌ، وَالْفُرْقَانُ شَرِيعَةٌ، يُحِلُّ اللَّهُ فِيهَا مَا شَاءَ وَيُحَرِّمُ مَا شَاءَ، لِيَعْلَمَ مَنْ يُطِيعُهُ مِمَّنْ يَعْصِيهِ، وَالدِّينُ الَّذِي لَا يُقْبَلُ غَيْرُهُ التَّوْحِيدُ وَالْإِخْلَاصُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ

وروى الطبري:

> عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة: ٤٨] يَقُولُ سَبِيلًا وَسُنَّةً. وَالسُّنَنُ مُخْتَلِفَةٌ: لِلتَّوْرَاةِ شَرِيعَةٌ، وَلِلْإِنْجِيلِ شَرِيعَةٌ، وَلِلْقُرْآنِ شَرِيعَةٌ ...
>
> سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة: ٤٨] قَالَ: «سُنَّةً وسَبِيلًا»
>
> عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة: ٤٨] يَعْنِي: «سَبِيلًا وَسُنَّةً»
>
> عَنْ مُجَاهِدٍ، قَوْلُهُ: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة: ٤٨] قَالَ: «سُنَّةً» {وَمِنْهَاجًا} «السَّبِيلُ»

> سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ زَيْدٍ، فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} [الإسراء: ٧١] قَالَ: بِكِتَابِهِمُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ فِيهِ أَمْرُ اللَّهِ وَنَهْيُهُ وَفَرَائِضُهُ، وَالَّذِي عَلَيْهِ يُحَاسَبُونَ، وَقَرَأَ: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة: ٤٨] قَالَ: الشِّرْعَةُ:

> الدِّينُ، وَالْمِنْهَاجُ: السُّنَّةُ، وَقَرَأَ: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا} [الشورى: ١٣] قَالَ: فَنُوحٌ أَوَّلُهُمْ، وَأَنْتَ آخِرُهُمْ

فصل: التَّصْرِيحُ بِكَوْنِ جَمِيعِ المُرسَلِينَ مُسلِمِين

- كما قال نوح عليه السلام ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)﴾ (يونس)
- ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤)﴾ (يونس)
- ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)﴾ (آل عمران)
- ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢)﴾ (آل عمران)
- ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ (النمل)
- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)﴾ (المائدة)

فكان جميع الأنبياء مسلمين.

• وأمر الله نبيَّنا ﷺ وبذلك ضمناً المؤمنين جميعاً ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤)﴾ (آل عمران)

• ثم أمر المؤمنين تصريحاً ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)﴾ (البقرة)

فبيّن في الآيتين السابقتين أيضاً أنّ الإسلام دين جميع الأنبياء السابقين عليهم السلام.

فصل: جميعُ الأنبياءِ أُمِرُوا بِلا إلٰه إلّا الله أو بِعبادَةِ اللهِ وَحْدَه أو بِتَرْكِ الشِرْكِ أو يَأْتِي ذَلكَ مَجْمُوعاً، وَكُلُّ ذلكَ هُوَ الإسلام

• ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾ (الأنبياء)

• ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦)﴾ (النحل)

• ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾ (آل عمران)

(باب) الإسلامُ دينُ اللهِ تعالى وَهُو الحَنِيفِيَّةُ وَمِلَّةُ إبراهيمَ

فصل: دِينُ اللهِ هُوَ الإسلامُ، لا يَقبَلُ اللهُ غيرَه

- ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩)﴾ (آل عمران)
- ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)﴾ (آل عمران)
- ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)﴾ (آل عمران)

فصل: الإسلامُ هُوَ مِلَّةُ إِبْراهيمَ وَهُوَ الحنيفيّةُ دِينُ الحُنَفاء

- ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ

وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩)﴾ (البقرة)

• ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾ (آل عمران)

• ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)﴾ (آل عمران)

• ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥)﴾ (النساء)

• ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾ (الأنعام)

• ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤)﴾ (الأنعام)

• ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦)﴾ (يونس)

• ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)﴾ (النحل)

• ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)﴾ (الحج)

• ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)﴾ (الروم)

• ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥)﴾ (البينة)

(باب) دِينُ اللهِ هوَ دِينُ الفِطْرةِ وَيُمْكِنُ مَعْرِفتُهُ بِالفِطرَةِ والعَقْلِ وَمَعنَى المِيثاقِ الذي أَخَذَه اللهُ على النَّاس

• ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ (الروم)، فأمر الله بالدِّينِ وبيّن أنّه الحنيفيّة وأنّه الفطرة وأنّه خَلَقَ جميعَ الناس عليها.

فصل: بيانُ النَّبيِّ ﷺ كيفَ تُحرَّفُ فِطْرَةُ النَّاسِ عَن الحنِيفِيَّة الَّتِي خَلَقَهُمُ اللهُ عَليْها

- أخرج مسلم:

> عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَالَ إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ …

- وفي صحيح البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

> كَانَ يُحَدِّثُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا الْآيَةَ.

وفي رواية:

> هَلْ تَجِدُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا.

فكلُّ مولود يولد على الإسلام على دين الفطرة. ويدلُّ الحديثُ على ذلكَ بوضوح ويدلُّ عليه:

١) ذِكرُ أبي هريرة لهذه الآية الَّتي ذكرتُها ومعناها في أوّلِ هذا الباب، فهذا استدلالٌ منه على هذا المعنى، وفي رواية لمسلم (**ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**).

٢) أنّه قال (**يهوِّدانه**) أو (**ينصِّرانه**) أو (**يمجِّسانه**) وعند مسلم (**يشرِّكانه**) ولم يقلْ (أو يسلمانه)، فعُلم أنّه لا حاجة أن يَجعلاه على الإسلام بِتربيَتِهِما له إذْ كان مسلماً بِدايةً.

٣) وكذلك فالمذكور كلُّه دينُ الشرك، فإن كان الأمر أنّهما دائماً يجعلانه على ملّة الشرك فإنّه كان قبل ذلك على التوحيد لأنّ الشرك نقيض الإسلام، فمَن لم يكن مُشركاً كان مُسلماً، إمّا هذا وإمّا هذا، لا ثالث لهما. كلّ ذلك مع ملاحظة أنّ الأبوَينِ إنّما هما عبارة عن كلِّ ما يؤثِّر في إفساد الفطرة وتحريفِها.

٤) ثم نجد الإمام مسلماً يذكر (**مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا وَهُوَ عَلَى الْمِلَّةِ**) وَفِي رِوَايَةٍ (**... إِلَّا عَلَى هَذِهِ الْمِلَّةِ حَتَّى يُبَيِّنَ عَنْهُ لِسَانُهُ**) وَفِي رِوَايَةٍ (**... لَيْسَ مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى هَذِهِ الْفِطْرَةِ حَتَّى يُعَبِّرَ عَنْهُ لِسَانُهُ**).

فتبيّن أنّ المراد بالإسلام هنا هو ما ركّزه الله تعالى في فطرة الإنسان مِن الاستسلام لخالقه والتهيُّؤِ لقَبول التوحيد والسَّلامةِ من معارضته. وليس المراد والله أعلم أنّه حقَّق ما بعَثَ الله به المرسلين عِلماً وقَصْداً وعَملاً، لقوله تعالى ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)**﴾ (النحل)

فصل: عِظَمُ شَأنِ الميثاقِ عِندَ مَن يَفْهَمُ الكِتابَ والسُّنَّةَ وإنْ جَهِلَهُ المُتَكَلِّمُون

• ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)**﴾ (الأعراف)

وروى أحمد:

> حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ محمّد حَدَّثَنَا جَرِيرٌ يَعْنِي ابْنَ حَازِمٍ عَنْ كُلْثُومِ بْنِ جَبْرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ أَخَذَ اللَّهُ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بِنَعْمَانَ يَعْنِي عَرَفَةَ فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا فَنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قِبَلًا قَالَ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ.

وروى أحمد أيضاً:

> حَدَّثَنَا عَبْد اللَّهِ حَدَّثَنَا محمّد بْنُ يَعْقُوبَ الزُّبَالِيُّ حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ عَنْ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ رُفَيْعٍ أَبِي الْعَالِيَةِ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ الْآيَةَ قَالَ جَمَعَهُمْ فَجَعَلَهُمْ أَرْوَاحًا ثُمَّ صَوَّرَهُمْ فَاسْتَنْطَقَهُمْ فَتَكَلَّمُوا
>
> ثُمَّ أَخَذَ عَلَيْهِمْ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالَ فَإِنِّي أُشْهِدُ عَلَيْكُمْ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ وَأُشْهِدُ عَلَيْكُمْ أَبَاكُمْ آدَمَ عليه السلام أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ نَعْلَمْ بِهَذَا
>
> اعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرِي وَلَا رَبَّ غَيْرِي فَلَا تُشْرِكُوا بِي شَيْئًا وَإِنِّي سَأُرْسِلُ إِلَيْكُمْ رُسُلِي يُذَكِّرُونَكُمْ عَهْدِي وَمِيثَاقِي وَأُنْزِلُ عَلَيْكُمْ كُتُبِي
>
> قَالُوا شَهِدْنَا بِأَنَّكَ رَبُّنَا وَإِلَهُنَا لَا رَبَّ لَنَا غَيْرُكَ فَأَقَرُّوا بِذَلِكَ وَرَفَعَ عَلَيْهِمْ آدَمَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ فَرَأَى الْغَنِيَّ وَالْفَقِيرَ وَحَسَنَ الصُّورَةِ وَدُونَ ذَلِكَ فَقَالَ رَبِّ لَوْلَا سَوَّيْتَ بَيْنَ عِبَادِكَ قَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أُشْكَرَ

> وَرَأَى الْأَنْبِيَاءَ فِيهِمْ مِثْلُ السُّرُجِ عَلَيْهِمْ النُّورُ خُصُّوا بِمِيثَاقٍ آخَرَ فِي الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ إِلَى قَوْلِهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ كَانَ فِي تِلْكَ الْأَرْوَاحِ فَأَرْسَلَهُ إِلَى مَرْيَمَ فَحَدَّثَ عَنْ أُبَيٍّ أَنَّهُ دَخَلَ مِنْ فِيهَا.

حديث أحمد هذا جاء مِن طُرُقٍ كثيرة لكنَّه مختصر في بعضها. أمّا مفصَّلاً كالذي سُقته عن أحمد فقد أخرجه الترمذيّ ومالك في الموطأ كِلاهما عن عمرَ بن الخطّاب رضي الله عنه يرفعه إلى النبيّ ﷺ، ولعلَّ إسنادَ حديث أحمد أحسنها والله أعلم.

وروى أحمد في مسنده قال:

> عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ، قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ»

ورواه ابن أبي عاصم في السنَّة وفيه:

> يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ، أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا». قَالَ: وَأَحْسَبُهُ قَالَ: «وَلَا أُدْخِلُكَ النَّارَ فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ بِي»

وروى أبو داوود:

> حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ الْمِنْهَالِ قَالَ سَمِعْتُ حَمَّادَ بْنَ سَلَمَةَ يُفَسِّرُ حَدِيثَ كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ قَالَ هَذَا عِنْدَنَا حَيْثُ أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ حَيْثُ قَالَ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى.

فتبيّن أنّ العبد مفطور على الإيمان مِن أوّل أمره، وأنّه يَعرف ربّه بفطرته السليمة. فيَعرف أنّه خالقه وخالقُ كلِّ شيء وأنّه يتّصف بصفات الإلهيّة فيَعرف عظَمته وأنّه وحيدٌ فريد في هذا لا يماثله فيه شيء، وأنّ هذه الصفات تقتضي أنّه وحده يستحقّ العبادة، فلا يعبد إلا هو، وإفراده بالعبادة هو الحقّ والعدل والصواب، والإشراك به في عبادته هو أظلم الظلم، وأنّ من فعله ظالم مبطل وأنّه على الباطل أي ليس على التوحيد الحقّ بل على طريقٍ مخالف ودينٍ آخرَ مناقضٍ له.

كلّ ذلك يمكن أن يعرفه من فطرته وعقله إذا كان سليماً، وجاء الأنبياء ليذكّروا الناس بهذا الأصل العظيم. فأقلُّ ما يدخل به الإسلام هو شهادة التوحيد عِلماً وعَمَلاً. والدَّليل على ذلك آية الميثاق السابقةُ فإنّها واضحة فيه. فمَن قام بهذه الأمور فإنّه أتى بما عليه وبما طالبه به ربّه بقوله ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وقوله (اعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرِي وَلَا رَبَّ غَيْرِي فَلَا تُشْرِكُوا بِي شَيْئًا).

(باب) الإسْلامُ هُو الإخْلاصُ والحنِيفِيَّةُ ومِلَّةُ إِبْراهيمَ والكُفْرُ بالطاغوتِ، والمشركُ لا يحقِّق شَيْئاً مِن ذلك

روى البخاري في الصحيح:

> عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ»

وروى أحمد في المسند قال:

> سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: أَخْبَرَنَا مَنْ شَهِدَ مُعَاذًا حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ. يَقُولُ: اكْشِفُوا عَنِّي سَجْفَ الْقُبَّةِ أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَالَ مَرَّةً: أُخْبِرُكُمْ بِشَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أُحَدِّثَكُمُوهُ إِلَّا أَنْ تَتَّكِلُوا سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ يَقِينًا مِنْ قَلْبِهِ، لَمْ يَدْخُلِ النَّارَ أَوْ دَخَلَ الْجَنَّةَ»، وَقَالَ مَرَّةً: «دَخَلَ الْجَنَّةَ وَلَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ»

ورواه بمثله الطبراني في الكبير.

فصل: قولُ اللهِ جَلَّ ذِكْرُه ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

قال تعالى في سورة الأنعام:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾

جاء في تفسير ابن أبي حاتم:

> عَنْ خُصَيْفٍ، فِي قَوْلِهِ: حَنِيفًا، قَالَ: الْحَنِيفُ الْمُخْلِصُ.

> عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: ضَحَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْعِيدِ كَبْشَيْنِ، وَقَالَ حِينَ وَجَّهَهُمَا: «{وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، {إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ١٦٢]» إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ

فَقَرَنَ رسولُ الله ﷺ بينَهما لأنَّ مَن كان حنيفاً كانت حياتُه ومماتُه للهِ وحدَه، ليس فيه شركٌ، وليس هو مِن المشركين.

وقال الطبري في الآية:

> يَعْنِي أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لَهُ خَالِصًا دُونَ مَا أَشْرَكْتُمْ بِهِ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْأَوْثَانِ. {لَا شَرِيكَ لَهُ} [الأنعام: ١٦٣] فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا لِشَيْءٍ مِنْهُمْ فِيهِ نَصِيبٌ، لِأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ إِلَّا لَهُ خَالِصًا.

فصل: الإسلامُ هو الإخلاصُ والإخلاصُ لا يُوجدُ في أَحَدٍ مِن المشرِكينَ والآياتُ في أوَّلِ سُورَةِ الزُّمَر

تكرَّر مِراراً مِن الكتاب والسنَّة وقولِ السَّلف وصف الإسلام بالإخلاص، بل أنَّ الإخلاص أساس الدين الذي بُنِيَ عليه، كما سبق في أوَّلِ الكتاب من رواية ابن أبي حاتم – ورواه الطبري بمثله – قال:

> عَنِ الرَّبِيعِ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، قَوْلُهُ: «{إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} [يوسف: ٤٠] قَالَ: أُسِّسَ الدِّينُ عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»

وقال تعالى في سورة الزُّمَر:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣)﴾

وسبَق تفسيرُ هذه الآياتِ عن السَّلف.

فثبت أنّ الإسلام هو الإخلاص وأنّ المسلم هو المخلص، فمن لم يحقِّقْه ليس على الإسلام حتماً. فمعنى كلمةِ (مسلم) هو أنّ هذا الشخص لا يعبد إلا الله، ولذلك جعَل أهلُ العلم الإخلاصَ شرطاً مِن شروط الشَّهادة، وإذا انتفى الشرط انتفى الإسلام بلا شكّ.

فهدى الله الذين يجوِّزُون مُشركاً يكون مسلماً في الوقتِ نفسِه، فعندهم يجوز أن يكون هناك (مسلم بلا إخلاص) و(مسلم بلا إسلام). إنّه لَتناقضٌ صارخ، والسُّؤال هو كيف يمكن أن يَعلمَ مَن صرَّح بهذا معنى الشهادة حقيقةً؟

وفي هذا الأمر مشكلةُ كثيرٍ مِن النَّاس اليومَ، أنّهم يتصوَّرون مسلماً بلا إخلاص ولا إسلام. ذلك لأنّهم لا يعلمون أنّ الإسلام إنّما هو عبادة الله وحده لا شريك له. وحقيقة قولهم أنّ معنى الإسلام هو الانتساب إليه، فيكون كلّ من يدّعي الإسلام مسلماً مَهْما قال ومَهما فعل.

وهكذا يصير الإسلام عندهم اسماً لا حقيقةَ له. كمثَل الأعمى يدّعي أنّه مبصر، فإذا أناس يقولون إنّنا نعلم أنّه أعمى لكنّه مبصر لمجرَّد ادّعائه. فماذا يُفهم من قولهم هذا إلا أنّهم لا يعرفون معنى البَصَر والعَمَى أو أنّهم يعرفون معناهما ويصرُّون على قولهم الباطل عِناداً؟

على هذا القول يمكن أن يكون الشخص مشركاً غيرَ مشركٍ، بِشرط أنّه كان جاهلاً بحقيقةِ الإسلام ومنتسباً للإسلام، فيصير عندهم مسلماً معذوراً بالجهل! أي هو مسلمٌ جاهلٌ لِجهلِه بالإسلام! وإن كان هذا أمراً يكاد أن لا يُصَدَّق، لكنَّه اليومَ اعتقادُ كثيرٍ مِن الناس.

فكلمة (المسلم) تحمل معنى معيَّناً يتضمَّن أفعالاً وصفاتٍ لا يأتي بها أحد من المشركين البتّة. وهذا ليس بغريب إذ كان الإسلام نقيض الشرك، ولذلك يستحيل أن يجتمع الشرك الأكبر والإسلام في الشخص الواحد في آنٍ واحدٍ. رجلٌ لا يعبد إلا الله لا يمكن بحالٍ أن يكون رجلاً يعبد غير الله.

فصل: الإسْلامُ هُوَ الحَنِيفيّةُ والمشركُ ليسَ حَنِيفاً

الحنيفُ هو من لا يعبد إلا الله، فلا يمكن أن يكون هناك حنيفٌ مشركٌ كما لا يوجد مسلمٌ مشركٌ أو مخلصٌ مشركٌ.

وفي كثير من آيات القرآن جاء بيانُ أنّ الإسلام هو الحنيفيّةُ وأنَّ كلَّ مسلمٍ حنيفٌ:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥)﴾ (البينة)

• يخبر الله تعالى أنّهم ما أمروا إلّا بالتوحيد لأنّه أساس الدين، ولا شكّ أنّ ما ذُكر بعده من الشرائع مع عِظم شأنّه لا يستوي هو والتوحيد. فبداية الآية المراد بها التوحيد أولاً، ذلك لما بُيّن من قبلُ مِن أنّ الشرائعَ منْبَنِيَةٌ عليه، ولأنّها شُرِعت بعد التَّوحيد بِفَتْرة، ولأنّ مَن جهِلها قبل نزولِها أو بعدَه جهلاً معتبراً يكون مسلماً معذوراً بجهلِه، بخلاف مَن جهِل الإسلام نفسَه.

• الله تعالى يؤكّد هذا الأمر ويبيّن أنّ معنى أن ﴿يَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ هو ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، وَفقاً لِما سبق مِن أنّ الإسلام هو الإخلاص.

• ثم يزيد الله الأمر بياناً فيبيّن مرةً أخرى أنّ معنى أن ﴿يَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ هو ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي ﴿حُنَفَاءَ﴾.

• وذلك هو الإسلام، ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾.

فهذه الآية كذلك دليلٌ مستقلّ فيما نحن فيه، لأنّها تُناقض قولَ مَن يجعلُ بعضَ المشركِينَ مسلِمينَ مِن عِدَّةِ وجوه.

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)﴾ (آل عمران)

في هذه الآية ما قيل في السابقة، ذُكرت فيها ثلاثة أمور كلّها في معنىً، (مسلمٌ) و(حنيفٌ) و(ما كان من المشركين).

فصل: الإسلامُ هُوَ مِلَّةُ إبراهيمَ والمُشرِكُ مُخالِفٌ لِأَساسِها

ظهَر مِن الآيات السابقة أنّ الإسلام هو مِلَّة إبراهيم عليه السلام. ومِلّة إبراهيم معناها عِبادة الله وحده وهي الإسلام العامّ الذي بُعث به جميع الأنبياء والمرسلين. لذلك يكون واضحاً معلوماً أنّنا مأمورُون باتّباع ملّة إبراهيم، ومع ذلك قد أَكَّد اللهُ هذا الأمر في مواضعَ من كتابه فقال:

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)﴾ (النحل)

فثبَتَ أنّ التوحيد ملّة إبراهيم، والمشرك ليس له نصيب منها.

قال الطبري مبينا:

> يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ وَقُلْنَا لَكَ: اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ الْحَنِيفِيَّةَ الْمُسْلِمَةَ {حَنِيفًا} [النحل: ١٢٣] يَقُولُ: مُسْلِمًا عَلَى الدِّينِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ، بَرِيئًا مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ الَّتِي يَعْبُدُهَا قَوْمُكَ، كَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ تَبَرَّأَ مِنْهَا

فصل: الإِسْلامُ هُوَ الكُفْرُ بالطَّاغوتِ والمُشْرِكُ لا يُحقِّقُ ذَلك

المسلم لا بدَّ أن يتبرَّأ مِن كلّ ما عُبِدَ مِن دون الله أي لا بدَّ مِن أن يَكفُرَ بالطَّاغوت[١٢].

لذلك جعل أهل العلم الكفر بالطاغوت شرطاً من شروط لا إلٰه إلّا الله. المشرك لم يحقِّق الكفر بالطاغوت لأنّه يعبده والكفر به هو تركُ عبادته والكفرُ بها، فمِن المُحال أن يُدّعَى أنّ إنساناً ما عابد لله وحده لا شريك له ومع ذلك لم يترك عبادة المعبودات من دون الله.

ويظهر هنا مرّةً أخرى أنّه لا تأثيرَ البتّة لِكَوْنِ هذا المشركِ عالماً أم جاهلاً بحقيقة حالِه، بل مَن لم يكفُرْ بالطاغوت يستحيل إسلامُه بغضِّ النظَر عن عِلْمِه أو جهلِه.

بل في مجرَّد احتجاج المخالف بالجهل حجَّةٌ أخرى على المخالف، إذ لو كان معذوراً بجهلِ حقيقةِ الإسلام والشركِ فكيف يكون مسلماً إن جهِل حقيقة الإسلام والشرك؟ كيف يَشهدُ بِشهادةِ التوحيد مَن لم يفهم معناها؟

فثبت أنّ مَن ادَّعى وجودَ مسلم يعبد غير الله فإنّه قد قال بذلك بوجود إنسانٍ كفَر بِعبادة الطاغوت وفي الوقت نفسه عبَد الطاغوت! وكما روى مسلم فإنَّ الإسلام بُنِيَ (عَلَى أَنْ يُوَحَّدَ اللَّهُ) و(عَلَى أَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ وَيُكْفَرَ بِمَا دُونَهُ)، والمشرك لا يحقّق ذلك بحال.

وكذلك روى مسلم عن أبي مالك عن أبيه عن النبيّ ﷺ: (مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ) وفي رواية له (مَنْ وَحَّدَ اللَّهَ ثُمَّ ذَكَرَ بِمِثْلِهِ).

---

[١٢] الكفر بالطَّاغوت ومعناه موضوعٌ هامٌّ، يتَّضح به معنى الإسلام أكثرَ فأكثرَ وتَنكشِفُ به تفاصيلُ مهمّةٌ تَمْنَعُ مِن وقوع المرْءِ في الإفراط والتفريط بعون الله وتوفيقه، فلا بدَّ مِن بحثِه بحثاً مُفْرداً مِن الكتاب والسنّة على طريقة أهل الأثر. فأسأل الله أن يُعينَ على تحقيقِ هذا المراد، آمين.

في كِلا الحديثينِ جعل التوحيد مقابلاً للكفر بالطاغوت. فكيف إذاً يمكن أن يُجعل مَن طلب الرِّزق من أحد الأموات من دون الله تعالى، قد كفر بالطاغوت؟ مع أنّ المراد بالكفر بالطاغوت إنّما هو الكفر بعبادة هذا المعبود من دون الله؟

فصل: لَوْ كان الإسلامُ مجرَّدَ الانْتِسابِ إلَيْه لَكانَ عُبّادُ الأصنامِ مُسْلِمِين

لو أمكن أن يكون المَرْءُ على دِينِ الإسلامِ لِمجرَّدِ انتسابِه إليه مع مخالفتِه لحقيقتِه لكان مشركُو العربِ على ملّةِ إبراهيم، لأنّهم انتسبوا إليها، وكثيرٌ منهم كانوا جهّالا بِمُناقضَة ما هم عليه لدين إبراهيم عليه السلام.

لكنّ هؤلاء كانوا مشركين بإجماع المسلمين، وما كانوا مسلمين لمجرّد انتسابهم وجهلهم. وكذلك الأمر اليومَ عند الذين ينتسبون إلى دين محمّد ﷺ مع وقوعهم في الشرك ومناقضتهم لحقيقة دين محمّد ﷺ. فإنهم لا يصيِّرهم جهلهم وانتسابهم إلى دين الإسلام مسلمين.

ومن فرّق بين أَتْباعِ محمّدٍ وأتباعِ غيرِه مِن الأنبياء في ذلك فقد فرّق بين المتماثلين دونَ أيِّ دليلٍ وخالفَ العقلاء، إذ العِلَّةُ الّتي جَعَلت كلَّهم مشركينَ واحدةٌ وهي شركُهم بغضِّ النظَر عن النبيِّ الذي انتمَوا إليه أو الشريعة التي انتسبوا إليها.

فصل: مَعْنَى كَلِمَةِ الشِّرْك

في الفصول السابقة تجلّى مِن النظر في كلمتَي الإسلام والمسلم معنى الإسلام وأنّه لا ينطبق على مشرك مطلقاً. وكذلك يتبيَّن معنى الإسلام مِن خلال فهم كلمتَي الشرك والمشرك. لا حاجة إلى إعادة ذكر أنّ الشرك ضدّ الإسلام والإخلاصِ والحنيفيّةِ وملّةِ إبراهيم.

وكما أنّ الإسلام ليس لفظاً مجرَّداً لا معنَى له فكذلك الشرك له معنًى وحقيقة يتبيّن من خلاله أنّ المشرك لا يكون مسلماً بحال. إسلام ومسلم وشرك ومشرك أسماء شرعيَّة لها دلالتها. وهناك أحكام تتعلَّق بهذه الأسماء وهي تنقسِم إلى أحكام الدنيا وأحكام الآخرة.

فالإسلام اسم يدلّ على أوصاف معيَّنَة إذا قامت في المَرْءِ كان مسلماً، وكذلك الشرك. والشرك والإسلام كغيرهما من الألفاظ مثل الآكل والشارب والماشي والراكب فيما ذُكر.

كلّ هذه الأسماء لها حقيقة إذا لم تتحقَّقْ في شخص لا يخالف عاقل أنّ الشخص لا يسمَّى بها. وهكذا يتبيَّن مرّةً أخرى أنّه لا تأثير لمسألةِ هل الشخص عالمٌ أم جاهل بحقيقة فعله، فإنَّه إمّا وُجدت فيه هذه الحقيقة أم لا، علِم ذلك أم جهِل.

وكذلك السارق يسمّى سارقاً إذا تحقّقت فيه حقيقة السرقة، سواء عَلِم حكمَ هذا الفعل في الإسلام أم لا. أمّا مسألة هل يلحَقه حكمُ السرقةِ أو يُعذر بجهله فهذه مسألة أخرى تماماً، لكنّها لا تُغَيِّر مِن وجود حقيقة السرقة أيَّ شيء. وقد ظهر اليومَ أناسٌ إذا قيل لهم **(فلان سارق)** يقولون **(لا تقل سارق، إنه كان جاهلاً)** للدفاع عن أصلهم الباطل، مخالفين لِلُّغة والشَّرع والعقل.

ومثله في هذا مَن كان مشركاً، فإنّ مَن فعل الشرك الأكبر سُمِّيَ به لوجود حقيقة الشرك فيه، ولا يمكن أن يسمّى مسلماً لأنّه ليس بمسلم في شيء، إذ حقيقة الإسلام لم تتحقّق فيه أصلاً. وهؤلاء يتصوَّرون مسلماً مشركاً، لكنَّ بعضهم مِن جهلهم بأبسط الأمور في اللُّغة إذا قيل لهم ذلك ينكرونه ويقولون **(نحن نقرُّ بأنَّ هذا المسلم فَعَلَ الشرك الأكبر، لكنَّه ليس مشركاً)**.

لكنَّ لفظ **(مشركٌ)** في لغة العرب هو اسم الفاعل مِن **(أشرَكَ)**، واسم الفاعل فيه معنى الفعل، ولذلك جاز أن يُوضع موضعَ الفِعْل وأن يَعمل عَمَلَه في الجملة. فيجوز أن يقال **(زيدٌ أشرَكَ بالله شيئاً)**، كما أنّه يجوز أن يقال **(زيدٌ مشركٌ باللهِ شيئاً)**، لا فرقَ بينهما في أصل المعنى، كما عند قولك **(زيدٌ يَشرَب خمراً)** و**(زيدٌ شارِبٌ خَمْراً)**. فـ**(شيئاً)** و**(خمراً)** في

الجملتين مفعول إمّا لِلفعل أو لاسم الفاعل الذي يعمل في المفعول عملَه اللغويَّ. فكيف يأتي الآن شخص ويقول **(زيدٌ يشرَب خمراً ...)** - فيقرّ بتحقُّقِ شربه للخمر -، **(... إلا أنّه ليس شارباً للخمر، لأنّه جاهل والجاهل معذور)**؟

أمّا الصواب في مثل هذا فهو أن يقال **(زيد شرِب خمراً، إلّا أنّه جهِل حُرمةَ شُربِ الخمر جهلاً معتبراً، فلا يعاقَب لجهله.)** أي تحققَّت فيه حقيقة الشرب فهو شارب بلا شكّ، لكنَّ حُكمَ الشرب يتخلَّف بسبب الجهل.

فأهل هذه البدعة يقرّون بأنّه أشرك بالله غيره، فقد أقاموا الحجّة على أنفسهم، إذ كفَى أن يقال لهم **(فهو مشركٌ بالله غيره إذاً؟)**، فإن أنكروه قد خالفوا اللُّغة والشرع والعقل السليم.

فظهَر جلِيّاً تناقضُهم في تصوُّر مسلمٍ مشركٍ بالله. ولِما سبَق مِن بديهيّات العربيَّة قال الطبريّ في النقل المذكور من قبل: (بَلْ أَكْثَرُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمَا لَا يَسْتَوِيَانِ، فَهُمْ بِجَهْلِهِمْ بِذَلِكَ يَعْبُدُونَ آلِهَةً شَتَّى مِنْ دُونِ اللَّهِ).

فإنَّه استعمل اسم الفاعل تماماً كما سبق بيانه، لكن على قول أهل هذه البدعة جاز أنَّ الطبري أراد بقولِه (الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ) أي **(المسلمِين المشركِين بالله)**، لكن أرجو أنَّ مَن كانت له بقيّةُ عقلٍ لا يلتزم مثل هذا.

فالمدافعون عن هذا القول الباطل لا بدّ أن يسألوا أنفسهم، هل هناك مسلم يصحّ أن تطلق عليه العبارات الآتية:

• مشركٌ بالله إلهاً آخرَ • عابدٌ مع الله إلهاً آخرَ • مُتَّخذٌ مع الله إلهاً آخرَ • عادلٌ بربِّهِ إلهاً آخرَ

(باب) التَّوحِيدُ أَصْلُ الإسلامِ فَكَيْفَ يَكُونُ عَلَى الإسْلامِ مَن لَمْ يُحَقِّقْ أَصْلَه؟

أخرج البخاري:

> عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ محمّدا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ

وفي رواية (عَلَى خَمْسٍ إِيمَانٍ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالصَّلَاةِ الْخَمْسِ) وفي روايةٍ لِمسلمٍ (عَلَى أَنْ يُوَحَّدَ اللَّهُ) وفي رواية له (عَلَى أَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ وَيُكْفَرَ بِمَا دُونَهُ).

هذا أساسُ الإسلامِ الذي ينْبني عليه بالاتِّفاق، وأيُّ بيتٍ يَبقى إذا ذهب أصلُه؟

فصل: المُشرِكُ لَمْ يُحقِّقْ ما خُلِقَ لَه

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ (الذاريات)

﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي إلا ليوحِّدونِ[١٣].

روى الطبري في الآية، ومثله ابن أبي حاتم، قالا:

> عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلَهُ: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦] «إِلَّا لِيُقِرُّوا بِالْعُبُودَةِ طَوْعًا وَكَرْهًا»

[١٣] وتلك الياء في آخر الكلمة يجوز حذفها في اللغة كما في الآية، والكسرة تبقى إشارة إليها وإن لم يُنطقْ بها عند الوقف كما في آخر الآية.

وذكر البخاري في كتاب التفسير من كتابه الجامع الصحيح:

> {وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]: «مَا خَلَقْتُ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الفَرِيقَيْنِ إِلَّا لِيُوَحِّدُونِ» وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «خَلَقَهُمْ لِيَفْعَلُوا، فَفَعَلَ بَعْضٌ وَتَرَكَ بَعْضٌ، وَلَيْسَ فِيهِ حُجَّةٌ لِأَهْلِ القَدَرِ ...

وجاء في تفسير مقاتل بن سليمان المعدود من أتباع التَّابِعِين من أهل التفسير:

> حدَّثنا عبد اللَّهِ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ أَبِي صَالِحٍ، قال: «إلا لِيوحِّدون»، قال أبو صالح: الأمر يعصى والخلق لا يعصى

فالمراد: (إلَّا ليُفردوا الله بخصائصِه ولا يشركوا به أحداً في شيء من ذلك)، ومنه إفراده بالعبادة، لأنّ الإقرار بتوحيد العبادة والعمل به إذا حصَل ذلك على الوجه المطلوب يتضمَّن الإقرار والعمل بتوحيد الربوبيّة والأسماء والصفات.

ولذلك ذكر بعض أهل العلم أنّ كلّ ما جاء في القرآن من الأمر بالعبادة إنّما المراد منه الأمر بالتوحيد في العبادة. وهذا لا شكّ فيه، إذ القرآن كلّه يفصّل المراد من هذا الأمر.

وقد سبق كلام الطبريِّ وهو يذكر رواية ابن عبَّاس رضي الله عنهما في ذلك. ورواها بمثل ذلك ابن أبي حاتم، بسنده:

> عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ أَيْ وَحِّدُوا رَبَّكُمْ.

ولو كان المراد مجرَّد العبادة لله حتى مع وجود الشرك، لكان عبّاد الأصنام موحِّدِين، وفي ذلك ذهاب معنى الدين كلّه. فتبيّن أنّ الله خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له، والمشرك لا يحقّق ذلك، فكيف يكون مسلماً؟

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (البينة)

وقد عرَفتَ معنَى الإله وأنَّه المعبود، فلو أمكن أن يكونَ الفاعلُ للشِّرك الأكبرِ مسلماً مخلصاً لله، فما هو معنى قول الله إذاً لما قال:

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١)﴾

كيف يقرؤُ عاقلٌ هذه الآيةَ ثُمَّ ذهَب إلى ذلك القول الفاسد وجعل المشرك مسلماً؟! أينَ تذهب عقولُ الناس عن هذه الآيةِ وهم يقرؤون القرآن، بل يدرِّسونه؟

(باب) اللهُ لا يَغْفِرُ الشِّركَ الأكبرَ والمُشْرِكُ لا يَدْخُلُ الجنَّة

فصل: في قولِ اللهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ...﴾

قول الله المذكور جاء في موضعين مِن كتاب الله، كِلاهما في سورة النساء:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨)﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦)﴾

جاء في تفسير مقاتل بن سليمان:

> {إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ} فيموت عَلَيْه يعني اليهود {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ} الشرك {لِمَنْ يَشاءُ} لمن مات موحِّداً فمشيئته - تبارك وتعالى - لأهل التوحيد.

... عن مُجَاهِد أنّ الاستثناء لأهلِ التوحيد {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ} معه غيره {فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً} يَقُولُ فقد قَالَ ذنباً عظيماً

وروى الطبري في ذلك:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلُهُ: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ} [النساء: ١٨] «فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ : {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ٤٨] فَحَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَغْفِرَةَ عَلَى مَنْ مَاتَ وَهُوَ كَافِرٌ، وَأَرْجَأَ أَهْلَ التَّوْحِيدِ إِلَى مَشِيئَتِهِ، فَلَمْ يُؤَيِّسْهُمْ مِنَ الْمَغْفِرَةِ»

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ} [الزمر: ٥٣] الْآيَةَ، قَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: وَالشِّرْكُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ. فَكَرِهَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} [النساء: ٤٨]»

عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: كُنَّا مَعْشَرَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ لَا نَشُكُّ فِي قَاتِلِ النَّفْسِ، وَآكِلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَشَاهِدِ الزُّورِ، وَقَاطِعِ الرَّحِمِ، حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ٤٨] فَأَمْسَكْنَا عَنِ الشَّهَادَةِ» وَقَدْ أَبَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَنَّ كُلَّ صَاحِبِ كَبِيرَةٍ فَفِي مَشِيئَةِ اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ عَلَيْهِ مَا لَمْ تَكُنْ كَبِيرَةً شِرْكًا بِاللَّهِ

عَنِ السُّدِّيِّ: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ٤٨] يَقُولُ: «مَنْ يَجْتَنِبِ الْكَبَائِرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» وَأَمَّا قَوْلُهُ: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء: ١١٦] فَإِنَّهُ يَعْنِي: وَمَنْ يَجْعَلْ لِلَّهِ فِي عِبَادَتِهِ شَرِيكًا، فَقَدْ ذَهَبَ

> عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ، وَزَالَ عَنْ قَصدِ السَّبِيلِ ذَهَابًا بَعِيدًا وَزَوَالًا شَدِيدًا. وَذَلِكَ أَنَّهُ بِإِشْرَاكِهِ بِاللَّهِ فِي عِبَادَتِهِ، فَقَدْ أَطَاعَ الشَّيْطَانَ وَسَلَكَ طَرِيقَهُ وَتَرَكَ طَاعَةَ اللَّهِ وَمِنْهَاجَ دِينِهِ، فَذَاكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ وَالْخُسْرَانُ الْمُبِينُ

> عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: «كُنَّا مَعْشَرَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَرَى أَوْ نَقُولُ: إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ حَسَنَاتِنَا إِلَّا وَهِيَ مَقْبُولَةٌ، حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} [محمد: ٣٣] فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قُلْنَا: مَا هَذَا الَّذِي يُبْطِلُ أَعْمَالَنَا؟ فَقُلْنَا: الْكَبَائِرَ وَالْفَوَاحِشَ، قَالَ: فَكُنَّا إِذَا رَأَيْنَا مَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْهَا قُلْنَا: قَدْ هَلَكَ، حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ٤٨] فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ كَفَفْنَا عَنِ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ، فَكُنَّا إِذَا رَأَيْنَا أَحَدًا أَصَابَ مِنْهَا شَيْئًا خِفْنَا عَلَيْهِ، إِنْ لَمْ يُصِبْ مِنْهَا شَيْئًا رَجَوْنَا لَهُ»

فمن قال بأنَّ الله يغفِر لِلمشرك ويُدخله جنَّتَه مع شِركه قد ردَّ الآية ولا بدّ، إذ معنى قوله إذاً **(إنّ الله يغفر أن يشرك به)**.

فصل: قَولُ النَّبِيِّ ﷺ (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ)

وأخرج البخاري عن أبي هريرة وكذا عن عبد الله بن مسعود في حديثٍ آخرَ قولَ النبيِّ ﷺ:

> **ثُمَّ أَمَرَ بِلاَلًا فَنَادَى بِالنَّاسِ: «إِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ ...**

وعند مسلم:

> **عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى قُبَّةِ أَدَمٍ، فَقَالَ: «أَلَا لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، اللهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللهُمَّ اشْهَدْ ...**

وفي مسند الدارمي:

> عَنْ مُحَرَّرِ بْنِ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لَمَّا بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَنَادَى بِأَرْبَعٍ حَتَّى صَحِلَ صَوْتُهُ: «أَلَا لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ ...

وعند ابن ماجه وبمثله في مسند أبي داود الطيالسي:

> عَنْ بِشْرِ بْنِ سُحَيْمٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ أَيَّامَ التَّشْرِيقِ فَقَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَإِنَّ هَذِهِ الْأَيَّامَ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ»

وفي فضائل الصحابة لأحمد:

> عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا بَكْرٍ بِسُورَةِ بَرَاءَةَ عَلَى الْمَوْسِمِ وَأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ إِلَى النَّاسِ، فَلَحِقَهُ عَلِيٌّ فِي الطَّرِيقِ، فَأَخَذَ السُّورَةَ وَالْكَلِمَاتِ، فَكَانَ عَلِيٌّ يُبَلِّغُ، وَأَبُو بَكْرٍ عَلَى الْمَوْسِمِ، فَإِذَا قَرَأَ السُّورَةَ نَادَى: أَلَا لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مَسْلَمَةٌ ...

وعند الترمذي:

> عَنْ زَيْدِ بْنِ أُثَيْعٍ، قَالَ: سَأَلْتُ عَلِيًّا بِأَيِّ شَيْءٍ بُعِثْتَ؟ قَالَ: «بِأَرْبَعٍ: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ ...

والمقصود مِن ذكرِهذه الأحاديث بيانُ أنَّ النبيَّ ﷺ بيّن هذا للنَّاس مِراراً، وهذا الحديث يدلّ على الإجماع المذكور قبلُ، أنّ المُشرك لا يدخلُ الجنّة مطلقاً.

فصل: حَدِيثُ سَلْمانَ الفارِسِيِّ ﷺ

والقول المذكور في الأحاديث السابقة جاء في حديث سلمانَ الفارسيِّ الحديثِ الطويلِ عند أحمدَ الذي فيه بحثُ سلمانَ عن الحقِّ، وأسوقُه هنا بطولِه لما فيه مِن الفوائدِ الجليلة فيما نحن فيه:

> عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ حَدِيثَهُ مِنْ فِيهِ، قَالَ: كُنْتُ رَجُلًا فَارِسِيًّا مِنْ أَهْلِ أَصْبَهَانَ مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ مِنْهَا يُقَالُ لَهَا جَيٌّ، وَكَانَ أَبِي دِهْقَانَ قَرْيَتِهِ، وَكُنْتُ أَحَبَّ خَلْقِ اللهِ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حُبُّهُ إِيَّايَ حَتَّى حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ كَمَا تُحْبَسُ الْجَارِيَةُ، واَجْتَهَدْتُ فِي الْمَجُوسِيَّةِ حَتَّى كُنْتُ قَطَنَ النَّارِ الَّذِي يُوقِدُهَا لَا يَتْرُكُهَا تَخْبُو سَاعَةً،
>
> قَالَ: وَكَانَتْ لِأَبِي ضَيْعَةٌ عَظِيمَةٌ، قَالَ: فَشُغِلَ فِي بُنْيَانٍ لَهُ يَوْمًا، فَقَالَ لِي: يَا بُنَيَّ، إِنِّي قَدْ شُغِلْتُ فِي بُنْيَانٍ هَذَا الْيَوْمَ عَنْ ضَيْعَتِي، فَاذْهَبْ فَاطَّلِعْهَا، وَأَمَرَنِي فِيهَا بِبَعْضِ مَا يُرِيدُ، فَخَرَجْتُ أُرِيدُ ضَيْعَتَهُ، فَمَرَرْتُ بِكَنِيسَةٍ مِنْ كَنَائِسِ النَّصَارَى، فَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ فِيهَا وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَكُنْتُ لَا أَدْرِي مَا أَمْرُ النَّاسِ لِحَبْسِ أَبِي إِيَّايَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا مَرَرْتُ بِهِمْ، وَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ، دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُونَ،

- ففي ذلك أن سلمان اهتمَّ بالأمر وأهمَّه أمرُ الدِّين والبحثُ عن الحقِّ.

وجاء بعده في الحديث:

> قَالَ: فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ أَعْجَبَنِي صَلَاتُهُمْ، وَرَغِبْتُ فِي أَمْرِهِمْ، وَقُلْتُ: هَذَا وَاللهِ خَيْرٌ مِنَ الدِّينِ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ، فَوَاللهِ مَا تَرَكْتُهُمْ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَتَرَكْتُ ضَيْعَةَ أَبِي وَلَمْ آتِهَا، فَقُلْتُ لَهُمْ: أَيْنَ أَصْلُ هَذَا الدِّينِ؟

في ذلك مِن الفوائد:

• أنَّ سلمان فهِم مباشرةً أنَّ هذا الدِّين خيرٌ مِن دين آبائه وأنه فارقَ دينَ آبائه فَوْراً عندَما رأَى ما هو خير منه.

• وفيه أنَّه شغَله البحثُ عن الحقِّ عن أمور الدُّنيا، بل أنَّه انشغل به عمَّا أمَرَه به والدُه.

• وفيه اجتهادُه في البحث والاهتمام بالدِّين، لأنَّه لم يتركهم حتى غرَبت الشَّمس.

• وفيه أنَّه سأل عن الدِّين، وهو مِن البحث عنه.

وجاء بعده في الحديث:

> **قَالُوا: بِالشَّامِ قَالَ: ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى أَبِي، وَقَدْ بَعَثَ فِي طَلَبِي وَشَغَلْتُهُ عَنْ عَمَلِهِ كُلِّهِ، قَالَ: فَلَمَّا جِئْتُهُ، قَالَ: أَيْ بُنَيَّ، أَيْنَ كُنْتَ؟ أَلَمْ أَكُنْ عَهِدْتُ إِلَيْكَ مَا عَهِدْتُ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَتِ، مَرَرْتُ بِنَاسٍ يُصَلُّونَ فِي كَنِيسَةٍ لَهُمْ فَأَعْجَبَنِي مَا رَأَيْتُ مِنْ دِينِهِمْ، فَوَاللهِ مَازِلْتُ عِنْدَهُمْ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، قَالَ: أَيْ بُنَيَّ، لَيْسَ فِي ذَلِكَ الدِّينِ خَيْرٌ، دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ خَيْرٌ مِنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: كَلَّا وَاللهِ إِنَّهُ لَخَيْرٌ مِنْ دِينِنَا، قَالَ: فَخَافَنِي، فَجَعَلَ فِي رِجْلَيَّ قَيْدًا، ثُمَّ حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ،**

وفي ذلك مِن الفوائد:

• أنَّه قال لِأبيه – مع علمِه بشدَّة أبيه في دينِ آبائه – ما حصَل له في ذلك اليومِ وما رأى وصرّح له أنّ ذلك الدِّين أعجبَه.

• أنه أنكَر على أبِيهِ وصرَّح له بِبُطلانِ دينِه وأنَّ غيرَه أحسن منه.

وجاء بعده في الحديث:

> **قَالَ: وَبَعَثْتُ إِلَى النَّصَارَى فَقُلْتُ لَهُمْ: إِذَا قَدِمَ عَلَيْكُمْ رَكْبٌ مِنَ الشَّامِ تُجَّارٌ مِنَ النَّصَارَى فَأَخْبِرُونِي بِهِمْ، قَالَ: فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ رَكْبٌ مِنَ الشَّامِ تُجَّارٌ مِنَ النَّصَارَى، قَالَ:**

فَأَخْبَرُونِي بِهِمْ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُمْ: إِذَا قَضَوْا حَوَائِجَهُمْ وَأَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَى بِلَادِهِمْ فَآذِنُونِي بِهِمْ، قَالَ: فَلَمَّا أَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَى بِلَادِهِمْ أَخْبَرُونِي بِهِمْ، فَأَلْقَيْتُ الْحَدِيدَ مِنْ رِجْلَيَّ، ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُمْ حَتَّى قَدِمْتُ الشَّامَ،

وفي ذلك جِدُّه واجتهادُه وعزمُه في الطَّلَب، فهو قد فارق أهلَه وبلدَه وفارقَ كلَّ شيءٍ، كما في قوله تعالى في سورة التوبة:

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦)﴾

وجاء بعده في الحديث:

فَلَمَّا قَدِمْتُهَا، قُلْتُ: مَنْ أَفْضَلُ أَهْلِ هَذَا الدِّينِ؟ قَالُوا: الْأَسْقُفُّ فِي الْكَنِيسَةِ، قَالَ: فَجِئْتُهُ، فَقُلْتُ: إِنِّي قَدْ رَغِبْتُ فِي هَذَا الدِّينِ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ مَعَكَ أَخْدُمُكَ فِي كَنِيسَتِكَ، وَأَتَعَلَّمُ مِنْكَ وَأُصَلِّي مَعَكَ، قَالَ: فَادْخُلْ فَدَخَلْتُ مَعَهُ، قَالَ: فَكَانَ رَجُلَ سَوْءٍ يَأْمُرُهُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُهُمْ فِيهَا، فَإِذَا جَمَعُوا إِلَيْهِ مِنْهَا أَشْيَاءَ، اكْتَنَزَهُ لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يُعْطِهِ الْمَسَاكِينَ، حَتَّى جَمَعَ سَبْعَ قِلَالٍ مِنْ ذَهَبٍ وَوَرِقٍ،

قَالَ: وَأَبْغَضْتُهُ بُغْضًا شَدِيدًا لِمَا رَأَيْتُهُ يَصْنَعُ، ثُمَّ مَاتَ، فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ النَّصَارَى لِيَدْفِنُوهُ، فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا كَانَ رَجُلَ سَوْءٍ يَأْمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُكُمْ فِيهَا فَإِذَا جِئْتُمُوهُ بِهَا اكْتَنَزَهَا لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يُعْطِ الْمَسَاكِينَ مِنْهَا شَيْئًا، قَالُوا: وَمَا عِلْمُكَ بِذَلِكَ؟ قَالَ: قُلْتُ أَنَا أَدُلُّكُمْ عَلَى كَنْزِهِ، قَالُوا: فَدُلَّنَا عَلَيْهِ، قَالَ: فَأَرَيْتُهُمْ مَوْضِعَهُ، قَالَ: فَاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ سَبْعَ قِلَالٍ مَمْلُوءَةٍ ذَهَبًا وَوَرِقًا، قَالَ: فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا: وَاللهِ لَا نَدْفِنُهُ أَبَدًا فَصَلَبُوهُ، ثُمَّ رَجَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ،

• وفيه فائدةٌ عظيمةٌ وهي أنَّ فِسقَ ذلك الأسقفِّ وبغضَه له لم يصرف سلمانَ عن الدِّين نفسِه، لأنَّ كثيراً منَ الناس إذا رأَوا شيئاً مِن رجلٍ ينتسب إلى الدِّين يأخذون ذلك ذريعةً لترك الدِّين كلِّهِ ويقولون لو كان في هذا الدين خيرٌ ما خَبُثَ عملُ أتباعِه.

• وفيه أنَّه أبغضَ الرجل لما فيه مِن فسوقٍ وسوء، والبغض في الله من الإيمان.

• وفيه صِدق سلمان وأنَّه فضَح أمرَه بعد موتِه وأظهرَ الحقَّ وأعان على تبيُّن الحقِّ.

وجاء بعده في الحديث:

> ثُمَّ جَاءُوا بِرَجُلٍ آخَرَ، فَجَعَلُوهُ بِمَكَانِهِ، قَالَ: يَقُولُ سَلْمَانُ: فَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا لَا يُصَلِّي الْخَمْسَ، أَرَى أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْهُ، أَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا، وَلَا أَرْغَبُ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا أَدْأَبُ لَيْلًا وَنَهَارًا مِنْهُ، قَالَ: فَأَحْبَبْتُهُ حُبًّا لَمْ أُحِبَّهُ مَنْ قَبْلَهُ، فَأَقَمْتُ مَعَهُ زَمَانًا، ثُمَّ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ إِنِّي كُنْتُ مَعَكَ وَأَحْبَبْتُكَ حُبًّا لَمْ أُحِبَّهُ مَنْ قَبْلَكَ وَقَدْ حَضَرَكَ مَا تَرَى مِنْ أَمْرِ اللهِ، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي، وَمَا تَأْمُرُنِي؟

• أحبَّه لِما رآه منه من خيرٍ ودين، والحبُّ في الله من الإيمان.

• وعند وفاته سأل أن يدلَّه على رجل مثله ليواصل تعلُّم الدِّين والبحثَ عن الحقِّ.

وجاء بعده في الحديث:

> قَالَ: أَيْ بُنَيَّ وَاللهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا الْيَوْمَ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، لَقَدْ هَلَكَ النَّاسُ وَبَدَّلُوا وَتَرَكُوا أَكْثَرَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ، إِلَّا رَجُلًا بِالْمَوْصِلِ، وَهُوَ فُلَانٌ، فَهُوَ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، فَالْحَقْ بِهِ،

• فيه فائدةٌ عظيمةٌ، وهي أنَّ الناس في ذلك الزمان، قروناً بعد عيس ابن مريم ﷺ وقعوا في تحريفِ الدين وتبديل شرائعه وتركِ أكثرِ ما كانوا عليه من الدِّين.

• ثُمَّ إنَّ الرجل لم يعلم أحداً وافقه في الدين، إلَّا رجلاً واحداً في مدينة أخرى. وهذا يدلُّ على شدَّةِ غُربةِ الدِّين.

• ويدلُّ على أنَّ المَرْءَ لا بدَّ أن يبحث عن الحقِّ في مثل هذه الأوضاع وأنَّ الله يوفِّق صاحبَ البحثِ الصادق إلى الحقِّ.

• وتكرَّرَ ما ذُكر في الحديث مِراراً مِن وفاة الرجل وأنَّه دلَّ سلمانَ على رجل آخر ولم يعرف إلّا شخصاً واحداً يوافقه على دينه، وهذا يؤكِّد ما قيل هنا تأكيداً.

> قَالَ: فَلَمَّا مَاتَ وَغَيَّبَ، لَحِقْتُ بِصَاحِبِ الْمَوْصِلِ فَقُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنَّ فُلَانًا أَوْصَانِي عِنْدَ مَوْتِهِ أَنْ أَلْحَقَ بِكَ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّكَ عَلَى أَمْرِهِ، قَالَ: فَقَالَ لِي: أَقِمْ عِنْدِي فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ، فَوَجَدْتُهُ خَيْرَ رَجُلٍ عَلَى أَمْرِ صَاحِبِهِ،

• في ذلك أنَّ الرجل الثاني كان مثل الأوَّل في الدين وفي الخير والصلاح، وهذا يدلُّ على أنَّ الرجل الصالح يعرف أمثالَه، يعرفهم بأوصافهم وأقوالهم وأفعالهم، ولا ينصح بمصاحبة شخصٍ إلّا بعدَ معرفةِ دينِه وصلاحِه.

> فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنَّ فُلَانًا أَوْصَى بِي إِلَيْكَ، وَأَمَرَنِي بِاللُّحُوقِ بِكَ، وَقَدْ حَضَرَكَ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا تَرَى، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي، وَمَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: أَيْ بُنَيَّ، وَاللهِ مَا أَعْلَمُ رَجُلًا عَلَى مِثْلِ مَا كُنَّا عَلَيْهِ إِلَّا بِنَصِيبِينَ، وَهُوَ فُلَانٌ، فَالْحَقْ بِهِ، قَالَ: فَلَمَّا مَاتَ وَغَيَّبَ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ نَصِيبِينَ، فَجِئْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ خَبَرِي، وَمَا أَمَرَنِي بِهِ صَاحِبِي، قَالَ: فَأَقِمْ عِنْدِي، فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ، فَوَجَدْتُهُ عَلَى أَمْرِ صَاحِبَيْهِ، فَأَقَمْتُ مَعَ خَيْرِ رَجُلٍ، فَوَاللهِ مَا لَبِثَ أَنْ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ،
>
> فَلَمَّا حَضَرَ، قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنَّ فُلَانًا كَانَ أَوْصَى بِي إِلَى فُلَانٍ، ثُمَّ أَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَيْكَ، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي، وَمَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: أَيْ بُنَيَّ، وَاللهِ مَا نَعْلَمُ أَحَدًا بَقِيَ عَلَى أَمْرِنَا

آمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ إِلَّا رَجُلًا بِعَمُّورِيَّةَ، فَإِنَّهُ عَلَى مِثْلِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ فَأْتِهِ، قَالَ: فَإِنَّهُ عَلَى أَمْرِنَا،

قَالَ: فَلَمَّا مَاتَ وَغَيَّبَ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ عَمُّورِيَّةَ، وَأَخْبَرْتُهُ خَبَرِي، فَقَالَ: أَقِمْ عِنْدِي، فَأَقَمْتُ مَعَ رَجُلٍ عَلَى هَدْيِ أَصْحَابِهِ وَأَمْرِهِمْ، قَالَ: وَاكْتَسَبْتُ حَتَّى كَانَ لِي بَقَرَاتٌ وَغُنَيْمَةٌ، قَالَ: ثُمَّ نَزَلَ بِهِ أَمْرُ اللهِ، فَلَمَّا حَضَرَ قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنِّي كُنْتُ مَعَ فُلَانٍ، فَأَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ، وَأَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ، ثُمَّ أَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَيْكَ، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي، وَمَا تَأْمُرُنِي؟

قَالَ: أَيْ بُنَيَّ، وَاللهِ مَا أَعْلَمُهُ أَصْبَحَ عَلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ آمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ، وَلَكِنَّهُ قَدْ أَظَلَّكَ زَمَانُ نَبِيٍّ هُوَ مَبْعُوثٌ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ يَخْرُجُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ، مُهَاجِرًا إِلَى أَرْضٍ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ بَيْنَهُمَا نَخْلٌ،

وفي ذلك من الفوائد:

- أنَّ ذلك الرجل من النصارى كان على علمٍ تامٍّ بالنَّبي ﷺ وأنَّه سيُبعَث في هذا الزمان، وعرَف أوصافه وعلاماتِه، وعرف تفاصيلَ مِن ذلك سيأتي ذكرها.
- وعلِم هذا الرجل دين إبراهيم وأنَّ ذلك النبيَّ سيكون على دين إبراهيم عليه السلام.

بِهِ عَلَامَاتٌ لَا تَخْفَى: يَأْكُلُ الْهَدِيَّةَ، وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، بَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْحَقَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ فَافْعَلْ، قَالَ: ثُمَّ مَاتَ وَغَيَّبَ، فَمَكَثْتُ بِعَمُّورِيَّةَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ أَمْكُثَ، ثُمَّ مَرَّ بِي نَفَرٌ مِنْ كَلْبٍ تُجَّارًا، فَقُلْتُ لَهُمْ: تَحْمِلُونِي إِلَى أَرْضِ الْعَرَبِ، وَأُعْطِيكُمْ بَقَرَاتِي هَذِهِ وَغُنَيْمَتِي هَذِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ فَأَعْطَيْتُهُمُوهَا وَحَمَلُونِي، حَتَّى إِذَا قَدِمُوا بِي وَادِي الْقُرَى ظَلَمُونِي فَبَاعُونِي مِنْ رَجُلٍ مِنْ يَهُودَ عَبْدًا،

في ذلك ما يحصل للمرأ من الشدائد والمصائب في حياته وفي البحث عن الحقِّ عموماً وأنَّ كلَّ هذا لم يصرِف سلمانَ عن مواصلة البحث.

> فَكُنْتُ عِنْدَهُ، وَرَأَيْتُ النَّخْلَ، وَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ الْبَلَدَ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي، وَلَمْ يَحِقْ لِي فِي نَفْسِي، فَبَيْنَمَا أَنَا عِنْدَهُ، قَدِمَ عَلَيْهِ ابْنُ عَمٍّ لَهُ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ فَابْتَاعَنِي مِنْهُ، فَاحْتَمَلَنِي إِلَى الْمَدِينَةِ، فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُهَا فَعَرَفْتُهَا بِصِفَةِ صَاحِبِي، فَأَقَمْتُ بِهَا وَبَعَثَ اللهُ رَسُولَهُ، فَأَقَامَ بِمَكَّةَ مَا أَقَامَ لَا أَسْمَعُ لَهُ بِذِكْرٍ مَعَ مَا أَنَا فِيهِ مِنْ شُغْلِ الرِّقِّ، ثُمَّ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَوَاللهِ إِنِّي لَفِي رَأْسِ عَذْقٍ لِسَيِّدِي أَعْمَلُ فِيهِ بَعْضَ الْعَمَلِ، وَسَيِّدِي جَالِسٌ، إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ عَمٍّ لَهُ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: فُلَانُ، قَاتَلَ اللهُ بَنِي قَيْلَةَ، وَاللهِ إِنَّهُمُ الْآنَ لَمُجْتَمِعُونَ بِقُبَاءَ عَلَى رَجُلٍ قَدِمَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَكَّةَ الْيَوْمَ، يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ، قَالَ: فَلَمَّا سَمِعْتُهَا أَخَذَتْنِي الْعُرَوَاءُ، حَتَّى ظَنَنْتُ سَأَسْقُطُ عَلَى سَيِّدِي،

في ذلك تحمُّس سلمانَ في البحث، وهكذا أهل الحقِّ كلُّ واحدٍ حسَب ما فيه من الصَّلاح. فسلمانُ لم يهمَّه الآن إلا هذا الأمر، هو لم يفكِّر إلا في هذا، حتَّى إنه ظنَّ أنّه سيَسقط عند سماع الخبر.

> قَالَ: وَنَزَلْتُ عَنِ النَّخْلَةِ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ لِابْنِ عَمِّهِ ذَلِكَ: مَاذَا تَقُولُ؟ مَاذَا تَقُولُ؟ قَالَ: فَغَضِبَ سَيِّدِي فَلَكَمَنِي لَكْمَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ قَالَ: مَا لَكَ وَلِهَذَا أَقْبِلْ عَلَى عَمَلِكَ، قَالَ: قُلْتُ: لَا شَيْءَ، إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَسْتَثْبِتَهُ عَمَّا قَالَ: وَقَدْ كَانَ عِنْدِي شَيْءٌ قَدْ جَمَعْتُهُ، فَلَمَّا أَمْسَيْتُ أَخَذْتُهُ ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِقُبَاءَ،
>
> فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ، وَمَعَكَ أَصْحَابٌ لَكَ غُرَبَاءُ ذَوُو حَاجَةٍ، وَهَذَا شَيْءٌ كَانَ عِنْدِي لِلصَّدَقَةِ، فَرَأَيْتُكُمْ أَحَقَّ بِهِ مِنْ غَيْرِكُمْ قَالَ:

فَقَرَّبْتُهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «كُلُوا» وَأَمْسَكَ يَدَهُ فَلَمْ يَأْكُلْ، قَالَ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: هَذِهِ وَاحِدَةٌ،

ثُمَّ انْصَرَفْتُ عَنْهُ فَجَمَعْتُ شَيْئًا، وَتَحَوَّلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، ثُمَّ جِئْتُهُ بِهِ، فَقُلْتُ: إِنِّي رَأَيْتُكَ لَا تَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أَكْرَمْتُكَ بِهَا، قَالَ: فَأَكَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْهَا وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَأَكَلُوا مَعَهُ، قَالَ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: هَاتَانِ اثْنَتَانِ،

قَالَ: ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِبَقِيعِ الْغَرْقَدِ، قَالَ: وَقَدْ تَبِعَ جَنَازَةً مِنْ أَصْحَابِهِ، عَلَيْهِ شَمْلَتَانِ لَهُ، وَهُوَ جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَدَرْتُ أَنْظُرُ إِلَى ظَهْرِهِ، هَلْ أَرَى الْخَاتَمَ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي؟

فَلَمَّا رَآنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ اسْتَدَبَرْتُهُ، عَرَفَ أَنِّي أَسْتَثْبِتُ فِي شَيْءٍ وُصِفَ لِي، قَالَ: فَأَلْقَى رِدَاءَهُ عَنْ ظَهْرِهِ، فَنَظَرْتُ إِلَى الْخَاتَمِ فَعَرَفْتُهُ، فَانْكَبَبْتُ عَلَيْهِ أُقَبِّلُهُ وَأَبْكِي،

هكذا الرجل الصالح بعد طُولِ البحث يظهَر عليه ما في ضميرِه بِالبُكاء وغيرِه. وفيه **محبَّةُ** النبيِّ ﷺ وأنّه حلاوة الإيمان، كما في صحيح البخاري:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ»

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»

وروى أبو داود في السُنَنِ في كتاب السُنَّةِ وبوَّب له بقوله (بَابُ الدَّلِيلِ عَلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَنُقْصَانِهِ):

> عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»

... فجاء بعد ما ذكر في خبر سلمان:

> فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَحَوَّلْ» فَتَحَوَّلْتُ، فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ حَدِيثِي كَمَا حَدَّثْتُكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، قَالَ: فَأَعْجَبَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يَسْمَعَ ذَلِكَ أَصْحَابُهُ، ثُمَّ شَغَلَ سَلْمَانَ الرِّقُّ حَتَّى فَاتَهُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَدْرٌ، وَأُحُدٌ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَاتِبْ يَا سَلْمَانُ» فَكَاتَبْتُ صَاحِبِي عَلَى ثَلَاثِ مِائَةِ نَخْلَةٍ أُحْيِيهَا لَهُ بِالْفَقِيرِ، وَبِأَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «أَعِينُوا أَخَاكُمْ»
>
> فَأَعَانُونِي بِالنَّخْلِ: الرَّجُلُ بِثَلَاثِينَ وَدِيَّةً، وَالرَّجُلُ بِعِشْرِينَ، وَالرَّجُلُ بِخَمْسَ عَشْرَةَ، وَالرَّجُلُ بِعَشْرٍ، يَعْنِي: الرَّجُلُ بِقَدْرِ مَا عِنْدَهُ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ لِي ثَلَاثُ مِائَةِ وَدِيَّةٍ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اذْهَبْ يَا سَلْمَانُ فَفَقِّرْ لَهَا، فَإِذَا فَرَغْتَ فَأْتِنِي أَكُونُ أَنَا أَضَعُهَا بِيَدَيَّ» قَالَ: فَفَقَّرْتُ لَهَا، وَأَعَانَنِي أَصْحَابِي، حَتَّى إِذَا فَرَغْتُ مِنْهَا جِئْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعِي إِلَيْهَا فَجَعَلْنَا نُقَرِّبُ لَهُ الْوَدِيَّ وَيَضَعُهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ، مَا مَاتَتْ مِنْهَا وَدِيَّةٌ وَاحِدَةٌ،
>
> فَأَدَّيْتُ النَّخْلَ، وَبَقِيَ عَلَيَّ الْمَالُ، فَأُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمِثْلِ بَيْضَةِ الدَّجَاجَةِ مِنْ ذَهَبٍ مِنْ بَعْضِ الْمَغَازِي، فَقَالَ: «مَا فَعَلَ الْفَارِسِيُّ الْمُكَاتَبُ؟» قَالَ: فَدُعِيتُ لَهُ، فَقَالَ: «خُذْ هَذِهِ فَأَدِّ بِهَا مَا عَلَيْكَ يَا سَلْمَانُ» فَقُلْتُ: وَأَيْنَ تَقَعُ هَذِهِ يَا رَسُولَ اللهِ مِمَّا عَلَيَّ؟

> قَالَ: «خُذْهَا، فَإِنَّ اللهَ سَيُؤَدِّي بِهَا عَنْكَ» قَالَ: فَأَخَذْتُهَا فَوَزَنْتُ لَهُمْ مِنْهَا، وَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ، أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً، فَأَوْفَيْتُهُمْ حَقَّهُمْ، وَعَتَقْتُ، فَشَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْخَنْدَقَ، ثُمَّ لَمْ يَفُتْنِي مَعَهُ مَشْهَدٌ

وفي روايةٍ له:

> وَقُمْتُ خَلْفَهُ، فَوَضَعَ رِدَاءَهُ، فَإِذَا خَاتَمُ النُّبُوَّةِ، فَقُلْتُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ فَقَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» فَحَدَّثْتُهُ عَنِ الرَّجُلِ، وَقُلْتُ: أَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّهُ حَدَّثَنِي أَنَّكَ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ أَخْبَرَنِي أَنَّكَ نَبِيٌّ أَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ»

وروى هذا مثله ابن أبي شيبة في المصنَّف والطبراني في الكبير.

وفيه فائدةٌ عظيمةٌ أيضاً، وهي الشاهد في هذه القصَّة الذي من أجلِه ذُكِرَتْ هاهنا، فإنَّ الرجل الذي سأل سلمان عنه ما رأى منه إلا خيراً وكان من أصلح الناس على ذلك الدين وأخبره أنَّ النبيَّ ﷺ سيُبعث في هذا الزمان وأنّه سيكون من العرب، ثم بيَّن له تفاصيل مِن علامات النبوَّة ونصح سلمان أن يبحث عنه ... ومع كلِّ ذلك لم يشهد النبيُّ ﷺ له بالجنَّة!

وليس في ذلك تصريح أنَّ هذا الرجل أو أصحابه يَدخلون النَّار وأنّهم كفّار والله أعلم، فكأنَّ النبيَّ أراد أن يعلِّم علماً بليغاً ومهمّاً بالإشارة إلى أنَّ المرءَ مَهْما قام به من الأعمال الصالحة في الظاهر فدخولُ الجنة يتوقَّف على أمرَين وهما **أوَّلاً:** أن توجد منه أَعْلَى شعبةٍ للإيمان وهي التوحيد الخالص، **وثانياً:** صلاح الباطن من النفاق والشكِّ.

فكأنَّه لم يُرد أن يؤكِّد له ذلك وأراد أن يعلِّمه بدلاً مِنه عِلماً هو أعمُّ مِن هذا، والله تعالى أعلم. وحقيقة حال هؤلاء الرجال الذين لقيَهم سلمانُ العلمُ بذلك عند الله، إنَّما أردتُ الإشارة إلى عدم التصريح بكفرهم في الحديث، والله تعالى أعلم.

وبكلِّ ما سبق عُلم فضلُ هذا الرجل الجليل سلمان الفارسيّ رحمه الله ورضي عنه، وقِصَّته العجيبة، ومَن فهِم ذلك فهِم قولَ النبي ﷺ الذي رواه البخاري في الصحيح قال:

> عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الجُمُعَةِ: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} [الجمعة: ٣] قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَلَمْ يُرَاجِعْهُ حَتَّى سَأَلَ ثَلاَثًا، وَفِينَا سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ، وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ، ثُمَّ قَالَ: «لَوْ كَانَ الإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا، لَنَالَهُ رِجَالٌ - أَوْ رَجُلٌ - مِنْ هَؤُلاَءِ»

وفي روايةٍ عند مسلم:

> قَالَ رَجُلٌ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ يَا رَسُولَ اللهِ فَلَمْ يُرَاجِعْهُ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى سَأَلَهُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا

وعند الترمذي:

> لَوْ كَانَ الإِيمَانُ مَنُوطًا بِالثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارِسَ.

فصل: مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ

قال البخاري في الصحيح:

> بَابُ مَا جَاءَ فِي الجَنَائِزِ، وَمَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
>
> وَقِيلَ لِوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ: أَلَيْسَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مِفْتَاحُ الجَنَّةِ؟ قَالَ: «بَلَى، وَلَكِنْ لَيْسَ مِفْتَاحٌ إِلَّا لَهُ أَسْنَانٌ، فَإِنْ جِئْتَ بِمِفْتَاحٍ لَهُ أَسْنَانٌ فُتِحَ لَكَ، وَإِلَّا لَمْ يُفْتَحْ لَكَ»

وبعده روى:

> عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي، فَأَخْبَرَنِي - أَوْ قَالَ: بَشَّرَنِي - أَنَّهُ: مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ» قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ»

وفي رواية له:

> قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ» وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا قَالَ: وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: هَذَا عِنْدَ المَوْتِ، أَوْ قَبْلَهُ إِذَا تَابَ وَنَدِمَ، وَقَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، غُفِرَ لَهُ

وبعد الحديث في الباب المذكور:

> عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ» وَقُلْتُ أَنَا: مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ

وقال تعالى في سورة المائدة:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢)﴾

روى ابن أبي حاتم في التفسير قال:

> عَنْ عَائِشَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الدَّوَاوِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: دِيوَانٌ لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ، وَدِيوَانٌ لَا يَعْبَأُ اللَّهُ بِهِ شَيْئًا، وَدِيوَانٌ لَا يَدَعُهُ اللَّهُ لِشَيْءٍ، فَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لَا يَغْفِرُ

> فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَقَالَ: {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} [المائدة: ٧٢]»

وقال الطبري مبيِّنا:

> لَوْلَا أَنَّهُ أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَمَاتَ عَلَى شِرْكِهِ لَكَانَ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ خِيَانَتِهِ وَمَعْصِيَتِهِ، وَكَانَ إِلَى اللَّهِ أَمْرُهُ فِي عَذَابِهِ وَالْعَفْوِ عَنْهُ. وَكَذَلِكَ حُكْمُ كُلِّ مَنِ اجْتَرَمَ جُرْمًا، فَإِلَى اللَّهِ أَمْرُهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ جُرْمُهُ شِرْكًا بِاللَّهِ وَكُفْرًا، فَإِنَّهُ مِمَّنْ حَتَّمَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ إِذَا مَاتَ عَلَى شِرْكِهِ، فَإِذَا مَاتَ عَلَى شِرْكِهِ، فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ، وَمَأْوَاهُ النَّارُ

> {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ} [المائدة: ٧٢] أَنْ يَسْكُنَهَا فِي الْآخِرَةِ. {وَمَأْوَاهُ النَّارُ} [المائدة: ٧٢] يَقُولُ: «وَمَرْجِعُهُ وَمَكَانُهُ الَّذِي يَأْوِي إِلَيْهِ وَيَصِيرُ فِي مَعَادِهِ، مَنْ جَعَلَ لِلَّهِ شَرِيكًا فِي عِبَادَتِهِ نَارُ جَهَنَّمَ.» {وَمَا لِلظَّالِمِينَ} [المائدة: ٧٢] يَقُولُ: «وَلَيْسَ لِمَنْ فَعَلَ غَيْرَ مَا أَبَاحَ اللَّهُ لَهُ وَعَبَدَ غَيْرَ الَّذِي لَهُ عِبَادَةُ الْخَلْقِ {مِنْ أَنْصَارٍ} [المائدة: ٧٢] يَنْصُرُونَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ اللَّهِ، فَيُنْقِذُونَهُ مِنْهُ إِذَا أَوْرَدَهُ جَهَنَّمَ»

(باب) المُشْرِكُ لا يَعرِفُ مَعنَى لا إلٰه إلّا الله

فصل: العِلْمُ بِالمعنَى مِن شُروطِ شَهادَةِ الإسلام

لا شكَّ أنّ المرْءَ لا يمكن أن يكون مُسلماً إلّا إذا حقَّق شرطَ العلم بِشهادة أن لا إلٰه إلّا الله. لا بدَّ أن يعلم المعنى وأن يعمَل به عن علمٍ وقصدٍ، وهذا معلوم في بدائه العقول. إذ لو أنّ رجلاً لا يعرف العربيّة سمِع **(لا إلٰه إلّا الله)** فَنطق بمثل ما سمع دون أيِّ علمٍ بمعناه، فإنّه ليس مسلماً بنطقه بالشهادة بإجماع المسلمين. قال تعالى:

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ... (١٩)﴾ (محمّد)

قال الطبري في الآية:

> يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: فَاعْلَمْ يَا مُحَمَّدُ أَنَّهُ لَا مَعْبُودَ تَنْبَغِي أَوْ تَصْلُحُ لَهُ الْأُلُوهَةُ، وَيَجُوزُ لَكَ وَلِلْخَلْقِ عِبَادَتُهُ، إِلَّا اللَّهُ الَّذِي هُوَ خَالِقُ الْخَلْقِ، وَمَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ، يَدِينُ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ كُلُّ مَا دُونَهُ

وقال البخاري في الصحيح:

> بَابٌ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} [محمد: ١٩] فَبَدَأَ بِالعِلْمِ

وعند مسلم:

> عَنْ عُثْمَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ.

والمشرك الجاهل لا يعلم معنَى التوحيد، ولو علِم معنى التوحيد ما كان مشركاً جاهلاً أصلاً، بل كان عندئذٍ عالماً بِبطلانِ الشِّرك ومع ذلك معانداً مُصِرّاً على إظهار شركه.

وقال ابن منده في كتاب الإيمان

> ذِكْرُ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَائِلَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ مُسْتَيْقِنًا مُعْتَقِدًا بِهَا قَلْبُهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ

ثم ذكر الحديث الذي عند مسلم، أن رسول الله ﷺ قال لأبي هريرة ﵁:

> «اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ»

وعند النَّسائي والطبراني وابن منده وغيرهم، واللفظ للنسائي:

> **عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ مَاتَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، مُوقِنًا مِنْ قَلْبِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»**

وبوَّب أبو عوانة في المستخرج:

> بَيَانُ الْأَعْمَالِ وَالْفَرَائِضِ الَّتِي إِذَا أَدَّاهَا بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْفَعُهُ الْإِقْرَارُ حَتَّى يَسْتَيْقِنَ قَلْبُهُ وَيُرِيدُ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ بِمَا يُحَرَّمُ بِهِ عَلَى النَّارِ

ثم ساق عدداً من الأحاديث قد سبق ذكرُ كثيرٍ منها في هذا الكتاب وبعضها في معناها.

قال محمّد بن نصرٍ في تعظيم قدر الصلاة:

> وَكَذَلِكَ حِينَ أَجَابَ النَّبِيُّ ﷺ جِبْرِيلَ بِقَوْلِهِ: «الْإِسْلَامُ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» لَمْ يُرِدْ شَهَادَةً بِاللِّسَانِ كَشَهَادَةِ الْمُنَافِقِينَ، وَلَكِنْ أَرَادَ شَهَادَةً بَدْؤُهَا مِنَ الْقَلْبِ بِالتَّصْدِيقِ بِاللَّهِ بِأَنَّهُ وَاحِدٌ.

وروى مسلم في الصحيح عن النبي ﷺ قال:

> **أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، لَا يَلْقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ**

وكيف يكون غيرَ شاكٍّ في أمرٍ مَن لا يعلم معناه أصلاً؟

فصل: مَعْنَى الشَّهادَةِ أنْ يَعْلَمَ الشَّاهِدُ ما شَهِدَ بِه

﴿... إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦)﴾ (الزخرف)

لفظ الشهادة يتضمّن عِلمَ الرجل بما يشهد به، فهذا شرط لصحَّة شهادته. فإذا لم يتحقّق هذا العِلم كانت شهادةَ زورٍ وكذبٍ، فلا تُتصوّر شهادةٌ دون علمٍ وفهمٍ لما يشهد به.

جاء في تفسير مقاتل بن سليمان:

{وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ} يقول لا تقدر الملائكة الذين يعبدونهم من دون الله الشفاعة، وذلك أنَّ النضر ابن الحارث ونفراً معه قالوا: إن كان ما يقول محمّد حقّاً فنحن نتولّى الملائكة وهم أحقُّ بالشفاعة من محمّدٍ ﷺ فأنزل الله {وَلا يَمْلِكُ} يقول ولا يقدر {الذين يدعون من دونه} وهم الملائكة {الشَّفَاعَةَ}، يقول لا تقدر الملائكة الذين تعبدونهم من دون الله على الشفاعة لأحد،

ثمَّ استثنى فقال: {إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ} يعني بالتوحيد من بني آدم، فذلك قوله: {وَهُمْ يَعْلَمُونَ} أنّ الله واحد لا شريك له فشفاعتهم لهؤلاء قوله: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ} يعني أهل مكة: كفّارهم {لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} وذلك أنَّه لمَّا نزلت في أوَّل هذه السورة «خلق السموات والأرض» نزلت في آخرها «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ»

فقال لهم النبيُّ ﷺ: من خلقكم ورزقكم وخلق السموات والأرض؟ فقالوا: الله خالق الأشياء كلِّها، وهو خلَقنا.

قال الله تعالى لنبيِّه ﷺ قُل لهم: {فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} يقول مِن أين يكذبون بأنَّه واحد لا شريك له، وأنتم مقرُّون أنَّ الله خالق الأشياء وخلقكم، ولم يشاركه أحد في ملكه فيما خلق؟ فكيف تعبدون غيره؟

وبه تَفهم معنى قولِ النبيّ ﷺ الذي رواه أحمد في المسند:

> عَنْ مُعَاذٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ»

فقد عرفتَ معنى الشهادة وأن لا شهادةَ إلّا بِعلم. ثم زاد عليه بياناً وتأكيداً هاهنا أن يشهدَ صادقاً مِن قلبِه، وهذا يستحيل عند من لا يعرف المعنى أصلاً.

فصل: سُؤالُ المَلَكَيْنِ فِي القَبْرِ

جاء عند أحمد وغيره الحديثُ الطويل عن سؤال الملَكين في القبر، وفيه عن روح الكافر:

> ... فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ»، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «{لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ} [الأعراف: ٤٠]
>
> فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى»، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا.» ثُمَّ قَرَأَ: «{وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ، فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} [الحج: ٣١]
>
> فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا ...

وفيه عن روح المؤمن:

> ... فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ، يَعْنِي بِهَا، عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ،
>
> فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى». قَالَ: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟
>
> فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ». قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ»

فكلٌّ يُسأَل عن علمه، فكيف يثبت في هذا المقام مَن ليس له علمٌ بحقيقة لا إلٰه إلا الله؟

وأصل الحديث عند البخاري قال:

> ... يُؤْتَى أَحَدُكُمْ، فَيُقَالُ لَهُ: مَا عِلْمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا المُؤْمِنُ - أَوِ المُوقِنُ، لاَ أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ - فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالهُدَى، فَأَجَبْنَا وَآمَنَّا وَاتَّبَعْنَا، فَيُقَالُ لَهُ: نَمْ صَالِحًا، فَقَدْ عَلِمْنَا إِنْ كُنْتَ لَمُوقِنًا، وَأَمَّا المُنَافِقُ - أَوِ المُرْتَابُ لاَ أَدْرِي أَيَّتَهُمَا قَالَتْ أَسْمَاءُ - فَيَقُولُ: لاَ أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ»

وفي ذلك قول الله تعالى في سورة إبراهيم:

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾

روى الطبري - ومثله عند ابن أبي حاتم، والأخبار في هذا الأمر كثيرة مستفيضة:

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ يَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ» قَالَ: «فَذَلِكَ قَوْلُهُ {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [إبراهيم: ٢٧]»

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي جِنَازَةٍ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا ... وَأَمَّا الْكَافِرُ أَوِ الْمُنَافِقُ، فَيُقَالُ لَهُ مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا أَدْرِي، فَيُقَالُ لَهُ: لَا دَرَيْتَ، وَلَا تَلَيْتَ، وَلَا اهْتَدَيْتَ ...

عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [إبراهيم: ٢٧] قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» {وَفِي الْآخِرَةِ} [إبراهيم: ٢٧] «الْمَسْأَلَةُ فِي الْقَبْرِ»

عَنِ الْبَرَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ... فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، قَالَ: فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، قَالَ: فَيُقَالُ لَهُ: مَا هَذَا النَّبِيُّ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ ذَلِكَ، لَا أَدْرِي. قَالَ: فَيَقُولَانِ: لَا دَرَيْتَ قَالَ: وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ {وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}

ويصل تثبيتُ اللهِ تعالى للصَّالحين إلى أن يطمئنُّوا في هذا الموقف الشديد لا يخافون، فسبحان الله، اللّٰهُمَّ اجعلنا من هؤلاء آمين. كما روى ذلك ابن ماجه ورواه بمثله أحمد وغيره، فقال ابن ماجه:

> **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمَيِّتَ يَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ، فَيُجْلَسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فِي قَبْرِهِ غَيْرَ فَزِعٍ وَلَا مَشْعُوفٍ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: فِيمَ كُنْتَ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ فِي الْإِسْلَامِ»**

فعُلِم أنَّ القول الثابت هو لا إلٰه إلا الله فيثبِّتُه الله في الدُّنيا والآخرة بالإسلام ويُضِلُّ الكافرَ عن ذلك، فلا يعلم في الآخرة. فكيفَ بِمن لم يعلم حقيقة لا إلٰه إلا الله في الدُّنيا؟

فصل: أوَّلُ ما يُعَلَّمُ الصَّبِيُّ الإيمانُ باللهِ والكُفْرُ بالطَّاغُوت وَهُوَ الإسلام

بوَّب ابن أبي شيبة في المصنَّف، قال:

> (باب) مَا يُسْتَحَبُّ أَنْ يُعَلَّمَهُ الصَّبِيُّ أَوَّلَ مَا يَتَعَلَّمُ

ثم ذكر فيه:

> حَدَّثَنَا حَاتِمُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، يُعَلِّمُ وَلَدَهُ، يَقُولُ: «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ وَكَفَرْتُ بِالطَّاغُوتِ»
>
> حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، عَنِ الْعَوَّامِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ قَالَ: «كَانُوا يَسْتَحِبُّونَ أَنْ يُلَقِّنُوا الصَّلَاةَ، وَيعْرِبُ أَوَّلَ مَا يَتَكَلَّمُ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَوَّلَ شَيْءٍ يَتَكَلَّمُ بِهِ»

والإيمانُ بالله والكفرُ بالطاغوت هذا معنى الإسلام، كما تبيَّن من قبل.

فصل: مِثالٌ يَضْرِبُه بعضُ مَن ضلَّ فِي هذا الزَّمانِ يَدُلُّ عَلَى سُوءِ الفَهْمْ

ومن الناس من يريد أن يبيِّن أنّ بعض المشركين مسلمون جهّالٌ في مثال وهميّ. لكن لو فهِموا حقيقة الشهادة لعلِموا أنّ هذا المثال يبيِّن خلافَ قولِهم. فيقولون نحوَ ما يلي:

(لو أنّ رجلاً آمن بالله عزّ وجلّ وبرسوله ﷺ ثمّ إنّه في لحظةٍ مِن لحظات حياته شعَر بضِيق فتوسَّم في شيخ مسجده الذي يوجد بالقرية الصلاحَ فذهَب إليه وقال له: أشعُر بِكرب شديد وبضيق في صدري. فقال له الشيخ: سأدلُّك على علاج ربّانيّ، لقد قال النبيّ ﷺ: إذا ضاقت الصدور فاستغيثوا بأصحاب القبور. فذهب الرجل يستغيث بأصحاب القبور ظنّاً منه أنّ رسول الله ﷺ قد أمَره بذلك).

فيقال:

• هذا الرجل في المثال لا يعرفُ معنى لا إلٰه إلّا الله حَتماً، فلا يحقِّق شرط العلم ولذلك يستحيل إسلامه.

• الرجل يعبدُ غير الله واتّخذ إلهاً من دون الله، فلا يمكن أن يوصف بأنّه محقّق لِلا إلٰه إلّا الله. إنَه ليس مسلماً ولا مخلصاً ولا حنيفاً ولا متّبعاً لملّة إبراهيم.

• إنّه ظنّ أنّ الميّتَ يستحقّ العبادة. ذلك لظنِّه أنّ هذا الميّت يُطلب منه ما لا يُطلب إلّا من الله تعالى، لأنّه حَسِبَ هذا مناسباً لمقام هذا الميّت.

• تصديقه الخبرَ المكذوبَ يؤكِّد كلَّ ذلك، لأنّه لو علِم الإسلام حقيقةً لاستحال أن يقبَل أيَّ قولٍ مناقض لحقيقتِه وأن يترك أساس الملّة لهذا الخبر. فمَن عرَف دينَ الإسلام يقبَلُ خبراً مكذوباً يحسِّن له الشرك؟! سبحان الله، هذا لن يكون!

وكيف إذاً أمرُ مَن آمَن بمُسيلِمة الكذّاب مِن بَني حنيفةَ وقد شهِد له أناسٌ عدَّةٌ عندَهم وكانوا يدَّعون أنَّه ينزِل عليه قرآن وكانوا يتلُون تلك الأرجاسَ في الصلاة، فهلّا عذَرْتُموهم يا مَن يسعى جهداً في عذرِ المشرِكين؟ وإنْ قُلتُم: لا، لأنَّ ذلك أمر عظيم وهو ادِّعاء نبوَّةِ أحدٍ بعدَ النبيِّ ﷺ، قيل لكم: بل أنتم تجوِّزون ما هو أعظمُ مِن ذلك إذ الإشراكُ بالله أعظمُ مِن إشراك نبيٍّ مع نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ. أَفَلا ينْتَهونَ عن مثلِ هذا الهراء؟

ولو أمكن مثل هذا الذي يصوِّرونه لجاز أنّ أحداً من المسلمين يصدِّق مَن جاءه وادّعى خبراً عن النبيّ ﷺ فيه بيانُ أنّ الله تعالى له ولد. فهل هذا ونظيرُه جائزٌ من مسلم؟ وهل يكون مَن يصدّق مثلَ هذا الخبرِ ويقبلُ ما فيه مسلماً معذوراً بالجهل، لأنّه أراد طاعة الله ورسوله؟

لا أظنّ أنّ إنساناً يحترمُ نفسَه يدّعي مثل ذلك، لكن كما سبق فهناك من يلتزم حتى هذا الباطل، ويفترض مسلماً يعبد عيسى بن مريم عليه السلام ويظنّه ابن الله تعالى لحداثة عهده بالإسلام – كما يزعم هؤلاء!

وإن لم يجز أن يُفترَضَ مسلمٌ يعتقد بُنوَّة عيسى عليه السلام، فكذلك لا يجوز افتراض إسلام عبّاد القبور، لأنّ الجامع بينهم الشرك الأكبر. لكنّ المشكلة أنّ كثيراً من الناس اليوم لا يعرفون الإسلام ولذلك يُشكل عليهم التفريقُ بين المسلم والمشرك.

وعجيب جدّاً أنّ من يورد هذا المثال المذكور قبل قليل يقرّ بأنَّ هذا الرجل في المثال فعَل الشرك الأكبر الصريح، ثم يحتجُّ بأنّ التوحيد إنّما هو (إفراد الله بالطاعة المطلَقة)!

ومعنى هذا القول العجيب أن يقال إنّ هذا المشرك الجاهل قد حقَّق التوحيد! وهذا قول في غاية البطلان لا يخفى بطلانه على صِبيان المسلمين. إذ كيف يجرِّد التوحيد عن معانِيه حتى يجعل المُشرك الجاهل بحقيقةِ الإسلام محقِّقاً للتَّوحيد بِحجّة أنّه أراد الخير وأنّه إنّما أراد أن يطيع الله بشركه؟! لو التزم هذا الزاعم هذا الأصل الباطل في كل أحدٍ، لزم منه إدخال جماهير أهل الكفر والشرك في ملة الإسلام، ما عليهم إلا أن يزعموا أنهم إنما أرادوا أن يطيعوا الله. فهذا ينطَبق على كلِّ فِرقة تدَّعِي الإسلامَ وهي خارجة عنه في حقيقة الأمر، بل وينطبق على عُبَّاد الأوثان مِن مشركي العرب قديماً. فكيف يزعم مَن تصدَّر لِتَدريس العِلمِ الشرعيِّ مثلَ هذا، بل كيف يزعمه عاقل؟

• ومع كلّ ما سبق يلاحظ أنّ هذا المثال بعيد جدّاً عن واقع الناس اليوم. وهذه مشكلة كبيرة أخرى مع أصحاب هذا القول، أنّهم لا يُنزّلون ما توصّلوا إليه على الرجل المفترَض

في المثال فَحسبُ، بل ينزِّلونه على كثير من المشركين اليوم أو على معظمهم، مع البَون الشاسع بينهم وبين المذكور في المثال. فأيّ مناسبة لذكرِ هذا المثال عند أناس يَقرؤُون القرآن ويسمعونه يوميّاً، ولعلّ كثيراً منهم حفظ بعضه أو كلّه؟

وبذلك يظهر سوءُ قصدِ مَن يجادل عن بعض المشركين بحجّةِ الجهل والانتساب، فإنّهم يخالفون الصواب من وجوه كما ظهَر. إذ حتّى على قولهم الباطل لا يجوز أن يطبّقوه على عامَّة المشركين اليوم، مما يبيِّن أنّ قصدهم إنّما هو إعذار هؤلاء بكلّ شيء مَهما كان، نسأل الله لنا ولهم الهداية آمين.

فصل: أَمثِلةُ المُشرِكِ الجاهلِ وعَدَمُ عُذْرِهِ فِي القُرآن

• قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧)**﴾ (سورة المؤمون)

سبَق مِن تفسير يحيى بن سلّام في هذه الآية قوله :

> وَكَانَ قَتَادَةُ يَقُولُ: لا بَيِّنَةَ لَهُ بِهِ بِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ أَنْ يَعْبُدَ إِلَهًا مِنْ دُونِهِ.

وقال الطبري هنا:

> يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَمَنْ يَدْعُ مَعَ الْمَعْبُودِ الَّذِي لَا تَصْلُحُ الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ مَعْبُودًا آخَرَ، لَا حُجَّةَ لَهُ بِمَا يَقُولُ وَيَعْمَلُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا بَيِّنَةَ

ثمّ أسند عن السلف قال:

> عَنْ مُجَاهِدٍ قَوْلُهُ: {لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ} قَالَ: «بَيِّنَةٌ»

> عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ: {لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ} قَالَ: «لَا حُجَّةَ»

يعني ليست لهذا المشرك الدَّاعي إلهاً آخرَ حجّةٌ ولا بيّنةٌ لِفِعلِه هذا، ومع ذلك لم يعذره الله تعالى بل جعله من الكافرين.

• وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٢٩)

وقد مرّ كلام الطبري في هذه الآية:

> يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وَمَا يَسْتَوِي هَذَا الْمُشْتَرَكُ فِيهِ، وَالَّذِي هُوَ مُنْفَرِدٌ مُلْكُهُ لِوَاحِدٍ، بَلْ أَكْثَرُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمَا لَا يَسْتَوِيَانِ، فَهُمْ بِجَهْلِهِمْ بِذَلِكَ يَعْبُدُونَ آلِهَةً شَتَّى مِنْ دُونِ اللَّهِ

(باب) لا يَدخُلُ المُشرِكُ الإسلامَ إلّا بالتَّوبَةِ مِنَ الشِّرْك

قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١)﴾ (التوبة)

روى ابن أبي حاتم في هذه الآية بسنده:

> ... عَنِ الرَّبِيعِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ يَقُولُ: تَوْبَتُهُمْ خَلْعُ الأَوْثَانِ وَعِبَادَتِهَا.
>
> ... عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ قَوْلُهُ: فَإِنْ تَابُوا مِنَ الشِّرْكِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَمْ تَقْتُلْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ.

> وَرُوِيَ عَنِ الضَّحَّاكِ فَإِنْ تَابُوا مِنَ الشِّرْكِ.
>
> ... عَنِ الأَوْزَاعِيِّ فِي قَوْلِهِ: فَإِنْ تَابُوا قَالَ: شَهَادَةُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلا اللَّهُ.

وروى ابن أبي حاتم والطبري:

> ... عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ: فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ يَقُولُ: إِنْ تَرَكُوا اللاّتَ وَالْعُزَّى وَشَهِدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ

قال الطبري مبيّناً وَفق ما رواه عن السلف:

> {فَإِنْ تَابُوا} [التوبة: ٥] يَقُولُ: فَإِنْ رَجَعُوا عَمَّا نَهَاهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ بِاللَّهِ وَجُحُودِ نُبُوَّةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ، دُونَ الْآلِهَةِ وَالْأَنْدَادِ، وَالْإِقْرَارِ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وقال أيضاً:

> قَالَ اللَّهُ: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} [التوبة: ٥] قَالَ: تَوْبَتُهُمْ خَلْعُ الْأَوْثَانِ وَعِبَادَةُ رَبِّهِمْ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ.

فلا شكّ في إجماع أهل العلم على أنّ المشرك لا يَدخل الإسلام إلا بعد توبته من الشرك.

وقال تعالى **﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً (١٤٦)﴾** (النساء)

قال الطبري مبيِّناً:

> الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ١٤٦] وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، اسْتَثْنَى التَّائِبِينَ مِنْ نِفَاقِهِمْ إِذَا أَصْلَحُوا وَأَخْلَصُوا الدِّينَ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَتَبَرَّءُوا مِنَ الْأَلِهَةِ وَالْأَنْدَادِ، وَصَدَّقُوا رَسُولَهُ، أَنْ يَكُونُوا مَعَ الْمُصِرِّينَ عَلَى

> نِفَاقِهِمْ، حَتَّى يُوَفِّيَهُمْ مَنَايَاهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَأَنْ يَدْخُلُوا مَدَاخِلَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ، بَلْ وَعَدَهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَنْ يُحِلَّهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَحَلَّ الْكَرَامَةِ، وَيُسْكِنَهُمْ مَعَهُمْ مَسَاكِنَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَوَعَدَهُمْ مِنَ الْجَزَاءِ عَلَى تَوْبَتِهِمُ الْجَزِيلَ مِنَ الْعَطَاءِ

فكيف يتوب المشرك من شركه إذا لم يخلص دينه لله؟

فلو نطق أحد المشركين بالشهادتين وصلّى وصام، إلّا أنه لا يترك الشرك، فإنّه لا يمكن أن يصير مسلماً بإجماع المسلمين. مثلاً لو شهد أحد مشركي العرب بالإسلام، وأصرَّ مع ذلك على عبادة اللّات والعزّى، فهل يكون معقولاً أنّ يصِير مثله مسلماً عند أحد من المسلمين؟

ولذلك علَّق الله تعالى الأخوَّة في الدين المذكورةَ في الآية على ترك الشرك.

فصل: أَوَّلُ ما يُدْعَى إِلَيْهِ المُشرِكُ هُوَ التَّوحِيد

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما:

> أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ.

وفي رواية له:

> فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرْهُمْ ...

وفي رواية له:

> فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى ...

وروى البخاري ومسلم:

> عن سَهْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَعْنِي ابْنَ سَعْدٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَى فَغَدَوْا كُلُّهُمْ يَرْجُوهُ فَقَالَ أَيْنَ عَلِيٌّ فَقِيلَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ فَقَالَ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا فَقَالَ انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ.

فالأمر بالتوحيد مقدَّم على الأمر بالصلاة والزكاة وغيرهما، ومعنى ذلك أيضاً أنّ الشرك أوّل ما يُنهى عنه قبل غيره.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ (١٥١)﴾ (الأنعام)

فليس من شكّ أنّ أوّل ما دعا إليه كلُّ نبيٍّ قومَه هو التوحيد.

﴿... اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُه ... (٥٩)﴾ (الأعراف)

قد أخبر الله تعالى في كتابه كثيراً أنّ كلّ نبيّ قال هذا لقومه، وقد سبق ذكر هذه الآيات وبيان معناها.

(باب) مَن جَعَلَ نَوعاً مِن المشرِكينَ مُسلِمينَ بِجَهلِهم يَلْزَمُه ذلك حَتْماً فِي جَمِيعِ أَنْواعِ المُشْرِكين

إنّ العرب في الجاهليّة انتسبوا كما تبيّن من قبل إلى إبراهيم ﷺ، بل حسِبوا أنّ لهم مقاماً رفيعاً عند الله تعالى لأنّهم كانوا يراعون الكعبة بيت الله تعالى الذي رفع إبراهيم القواعد منه مع إسماعيل عليهما السلام.

روى البخاري في الصحيح قال:

> عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَيْلَكُمْ، قَدْ قَدْ» فَيَقُولُونَ: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ، يَقُولُونَ هَذَا وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ

فعبّاد الأصنام هؤلاء آمنوا بوجود الله تعالى وعبَدوه، بل أخلصوا بعض عباداتهم لله تعالى. فظنّوا أنفسهم على دين إبراهيم وانتسبوا إلى الإسلام العامّ، ولم يجعلهم كلّ ذلك مسلمين في حقيقة الأمر.

فمن جعل مشركاً ما مسلماً لمجرّد انتسابه إلى دين محمّد ﷺ، يلزمه حَتماً أن يجعل أولئك المشركين في الجاهلِيَّة أيضاً مسلمين. بل مشركو العرب أولى أن يُجعلوا مسلمين على هذا القول الفاسد، لأنّهم عاشوا في جاهليَّة جهلاء. فلم يكن هناك كتاب محفوظ من عند الله كالقرآن الذي بين أيدينا إلّا بقايا من دين إبراهيم دونَ آية واحدة مكتوبة منه وبقايا اليهوديّة والنصرانيّة على تحريفٍ شديدٍ في كلِّ هذه الأديان.

فصل: وَمَن فَعَلَ ذلك في نَوعٍ مِن الشِرك فإنَّه يَلْزَمُه ضَرُورةً في جَمِيعِ الأَنْوَاع

إضافةً إلى ما سبق يلزَم مَن يقول بهذا القول الفاسد أنّ المرْءَ يُحتمل كونه مسلماً مع جميع أنواع الشرك الأكبر. فلو أشرك بالله تعالى خالقاً آخر أو ابناً أو أُمّاً، أو نسَب إلى بعض الخلق علمَ الله تعالى مطلَقاً، يمكن على أصلهم أن يكون مسلماً بِشرطِ أنّه لم يَعلَمْ أنّ هذه الاعتقاداتِ تُناقِض الإسلام وأنّه كان ممَّن ينتسب إلى الإسلام.

وكذلك لو عبَد عيسى عليه السلام أو الملائكةَ لا بدّ على أصلهم أن يكون مسلماً.

فصل: كثيرٌ مِن المشرِكينَ السَّابِقِينَ أَوْلَى بِالإسْلام عَلَى هَذا الأَصْلِ الباطِل

وسبب ذلك أنّ المرْءَ إذا عبد بعض الأموات ويمكن مع ذلك أن يكون مسلماً، فمن عبد أحد الأنبياء بل أُولي العَزْم مِن الرُّسل أَولى، إذ لا شكّ أنّ الأنبياء أفضل مِن سائر الأموات. فالنَّصارى العابدون لعيسى بن مريم عليه السلام على قولهم أولى بالإسلام من هذا الوجه، لأنّهم انتسبوا إلى دينه وفعلوا ذلك جهلاً منهم.

وإذا أنكر المخالف ذلك واعترض أنّه لا يقرُّ أنّ من جعل عيسى ابن الله يمكن أن يكون مسلماً يقال له: لماذا لا يمكن ذلك؟ لأنّه شرك أكبر؟ فكيف يفرّق بين نوعين من الشرك الأكبر؟ فثبَتَ أنّه لا يمكن التفريق بينهما إذ لا دليلَ على هذا التفريق بحال، بل كِلاهما مشرك، بل الذي يعبد أمواتاً غير الأنبياء أولى بِكونه مُشركاً من الذي يعبد نبيّاً بالاعتبار المذكور كما سبق، وخصوصا إذا كان ذلك المشركُ المنتسبُ إلى الإسلام أشرك بالله في شؤون الربوبيَّة وادّعى لمعبوده التصرُّف في أمور الكون وما يشبه ذلك، كما يقع اليوم من كثير من أهل الشرك، فمثلُ هذا أَوْلَى أن يكونَ مشركاً في كلِّ ما ذكِر!

لكنّ الأعجَب أنّ بعض القائلين بهذا القول الفاسد يلتزمون هذه اللوازمَ الباطلة ويقرّون بإسلام مَن جعل عيسى ابن الله وعبَده. فكيف يكون مثلُ هذا القائل مسلماً قد فهِم معنى التوحيد؟

فصل: مُخالَفةٌ لِلْقُرآنِ والسُّنَّةِ والإجْماعِ مِن وُجوهٍ كَثِيرَةٍ

جَعْل هؤلاء المشركين مسلمين مخالفٌ للدين مِن وجوه، ومَن قرأ القرآن يجزِم أنّ جميع الأنبياء اعتبروا أقوامهم مشركين عِندَما بُعثوا إليهم، وخاطبوهم بذلك، ودعَوهم إلى ترك الشرك وعبادة الله وحده.

ولذلك اتّفق أهل التفسير واللُّغة والتاريخ على تسميَة هؤلاء العرب قبل البعثة بمشركي العرب. وكذلك اليهود والنصارى وغيرهم، فالقرآن يجعلهم غير مسلمين بوضوح وأجمع أهل العلم على ذلك، بل يروُون الإجماع أنّ مَن لم يكفّر اليهود والنصارى فإنّه كافر.

فصل: عامَّةُ المُشرِكينَ إنَّما يَقَعُون فِي الشِّرك بِسَبَبِ جَهْلِهم

لو قيل بأنّ المشركين في الجاهلية إنّما كانوا مُشركين لِمُعانَدَتهم مع عِلْمِهم بالحقّ لكان ذلك فِكرةً عجيبةً ومِن أبيَن الدلائل على جهل هذا القائل وفساده. بل هؤلاء الجاهليّون إنّما فعلوا الشرك لشِدَّة جهلِهم كما سبق بيانُ ذلك في مواضع. فكيفَ يأتي الآن أناس ويحكمون للمشركين اليوم بالإسلام بينَما مشركو الجاهليَّة عندهم من أعظم الكفّار، هذا أمر عجيب جدّاً.

فكأنّ المشرك عندهم كلَّما ازدادَ علماً بالحقّ وكلَّما تيسَّرت له سبلُه كان أحقَّ بالعذر. فمَن عرف العربيَّة وحفِظ القرآن ثُمَّ يعبد الأولياء من دون الله عندهم معذور بجهله، أمّا المشركون في الجاهليَّة فلا يتردَّدون في جعْلِهم مشركين اسماً وحكماً. فأيُّ مقياس هذا؟! هذا تناقض حتّى على أصلهم الفاسد.

والحقيقة أنّ أصلَهم يقتَضِي كذلك كونَ اليهود والنصارى اليومَ أولى بوصف الإسلام العامّ بكثير، لأنَّهم أجهَلُ بكثيرٍ بحقيقةِ دينِ الإسلام ونصوصِه، وسبيلهم إلى العلم أصعب بكثير من سبيل المشركين الذين يتكلّمون العربيّة ويعبدون القبور والدستور والطواغيت المشرِّعين والمشايخ والأولياء.

كلُّ هذه تناقضات شديدة متسلسلة، والحقيقة كما سبق أنّ أكثر الناس إنّما يفعلون الشرك جهلاً لا عن علمٍ ومعانَدة.

(باب) الشِّرْكُ يُحبِطُ جَمِيعَ الأَعْمالِ

إنّ الشرك الأكبر في عبادة الله تعالى يُحبط جميع الأعمال باتّفاق المسلمين. أمّا سائر الذنوب غير الشرك فإنّها قد تحبط بعض الأعمال لكنّها لا تحبط عمل الإنسان كلَّه. ومن يقول بإمكان إسلام بعض المشركين يخالف هذه الحقيقة، إذ أمكن على قوله أنّ بعض الناس يُوجد منهم الشرك الأكبر في العبادة ومع ذلك لا يَحْبَطُ إسلامُهم. ويأتي توضيح ذلك مِن كتاب الله تعالى وتفسير السَّلف له، كما يلي.

فصل: قَولُ اللهِ تعالى عَن نَبِيِّنا ﷺ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥)﴾ (الزمر)

يقول الطبريّ في معنى الآية:

> يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ رَبُّكَ، وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الرُّسُلِ {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [الزمر: ٦٥] يَقُولُ: لَئِنْ أَشْرَكْتَ بِاللَّهِ شَيْئًا يَا مُحَمَّدُ،

لَيَبْطُلَنَّ عَمَلُكَ، وَلَا تَنَالُ بِهِ ثَوَابًا، وَلَا تُدْرِكُ جَزَاءً إِلَّا جَزَاءَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ، وَهَذَا مِنَ الْمُؤَخَّرِ الَّذِي مَعْنَاهُ التَّقْدِيمُ؛

وَمَعْنَى الْكَلَامِ: وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ، وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ، وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ، بِمَعْنَى: وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الرُّسُلِ مِنْ ذَلِكَ، مِثْلَ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْهُ، فَاحْذَرْ أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا فَتَهْلَكَ وَمَعْنَى قَوْلِهِ: {وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الزمر: ٦٥] وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْهَالِكِينَ بِالْإِشْرَاكِ بِاللَّهِ إِنْ أَشْرَكْتَ بِهِ شَيْئًا

فالمخاطَب في هذه الآية هو النبيّ ﷺ مع أنّه كان معصوماً مِن الشرك، وذلك مما يُسمّى بفرض المستحيل، والمراد منه الإتيان بمثال في غاية الوضوح يمكن أن تُقاس عليه كلُّ الصور الأخرى التي دونَه. ومعناه أنّ المذكور في الآية ليس موجَّهاً إلى النَّبيِّ ﷺ أوَّلاً، بل هو تحذير وبيانٌ لعامَّة الناس الذين ليسوا معصومين من الشِّرك. ومعنى ما يخبرُنا الله تعالى به: **(إن كان حقَّى النبيُّ يفقِد جميع أعماله بفعل واحدٍ من الشرك الأكبر ويكون من الخاسرين، فغيرُ النبيِّ أولى بحبوط جميع أعماله).**

ولا بدَّ أن يُنتبه هنا إلى أنّ الأنبياء عليهم السلام أشدُّ الناس بلاءً، فأعمالهم خير الأعمال إطلاقاً. ثم محمّد ﷺ سيّد الأنبياء وخاتم المرسلين. من لم يَنتبه إلى هذه الأمور لا يفقَه حقيقة هذه الآية وقوّة الحجَّة التي فيها تماماً.

كلُّ حياةِ محمّدٍ ﷺ مع ما فيها من الأعمال العظيمة مِن تحمُّل الرسالة الثقيلة ومشاقّ الدعوة إليها من عداوة قومه وإخراجه من بلده وقتال المشركين في سبيل الله وثباته في كلّ ذلك، لو أشرك هو في فعل واحد مع الله إلهاً آخر لَفقد جميع هذه الأعمال وخسر الدنيا والآخرة. والله تعالى يؤكّد هذين الأمرين من حبوط العمل وكونِه في هذه الحالة من الخاسرين بنون التَّوكيد الثقيلة.

فإذا كانت هذه حالة محمّد ﷺ لو فُرض أن تقع منه فِعلةُ شركٍ، فهل يبقى للمشركين قديماً وحديثاً شيءٌ من أعمالهم؟ بل أهل الشرك في كلّ زمان أولى ثمّ أولى بحبوط جميع أعمالهم، وإذا كان الأمر كذلك فَبِأيِّ عمل يَدخلون جنَّة المؤمنين كما يدَّعِي ذلك مَن يجعلُهم مؤمنين ومسلمين بِحجّة الجهل والانتساب؟

فصل: قَوْلُ اللهِ تَعالى عَن الأنْبياءِ ﷷ ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

ومِثل الآية التي سبق ذكرها هذه الآيات من سورة الأنعام:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ
(٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ
وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى
وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى
الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
(٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ
وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (٩٠)﴾ (الأنعام)

روى ابن أبي حاتم في التفسير:

> سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠] وَقَرَأَ: {ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ٨٨] يُرِيدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالَ هَدَيْنَاهُمْ وَفَضَّلْنَاهُمْ

وقال الطبري في هذه الآيات:

> {وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ٨٨] يَقُولُ: وَلَوْ أَشْرَكَ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ سَمَّيْنَاهُمْ بِرَبِّهِمْ تَعَالَى ذِكْرُهُ، فَعَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ، {لَحَبِطَ عَنْهُمْ} [الأنعام: ٨٨] يَقُولُ: لَبَطَلَ فَذَهَبَ عَنْهُمْ أَجْرُ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونَ، لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مَعَ الشِّرْكِ بِهِ عَمَلًا

فهؤلاء هم المهتدون وعلينا أن نقتدي بهداهم، لكنّ الله تعالى يخبر أنّ هِدايتهم في ترك الشرك، أمّا لو فعلوا الشرك لحبِطتْ أعمالهم كغيرِهم مِن البشر، وفي تلك الحالة ما كانوا مهتدين بل كانوا ضالّين.

فصل: مُخالَفَةُ آياتٍ كَثِيرةٍ مِن القُرآنِ وأَنَّ لَفْظَ المُشركينَ فِيهِ يَشمَلُ الجاهلَ مِنهم بِلا شَكّ

تسميَة المشرك مسلماً ومعاملتُه معاملةَ المسلمين تؤدِّي حتماً إلى مخالفاتٍ عدَّة لآياتِ القرآن، كما ظهَر في المثال السابق، وهناك أمثلةٌ كثيرةٌ في القرآن قدْ سبَق ذكرُ العديدِ منها، وأذكرُ آياتٍ أخرى مِن هذا القبيل مِن باب الإشارة:

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦)﴾ (النحل)

جاء في تفسير مقاتل بن سليمان:

> {وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ} يعني أن وحّدوا الله {وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} يعني عبادة الأوثان {فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ} إلى دينه {وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ} يعني وجبَت الضَّلالَةُ {فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}

وقال الطبري في الآية:

> يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَلَقَدْ بَعَثْنَا أَيُّهَا النَّاسُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ سَلَفَتْ قَبْلَكُمْ رَسُولًا كَمَا بَعَثْنَا فِيكُمْ بِأَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَفْرِدُوا لَهُ الطَّاعَةَ وَأَخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ

فهنا يقال أيضاً، إذا جُعِلَ المشرك مسلماً ينقلب معنى الآية بجعله من المهتدين المتَّبِعين للأنبياء، لا مِن الضالِّين، مع أنّه يخالف هداية الأنبياء عليهم السلام لأنّه عبد الطاغوت بدلاً من أن يكفُرَ به.

وممّا تَظهر فيه هذه المخالَفة البيِّنةُ للقرآن أيضاً أنّ لفظ المشركين في القرآن يدخل فيه المشرك الجاهل حتماً، ومَن جعَله مسلماً محتجّاً بجهله يُخالف كلَّ هذه الآيات، ومنها:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣)﴾ (التوبة)

ففي القرآن أنّ المسلمَ لا يجوز له أن يستغفرَ للمشركِ بعد موتِه.

قال الطبري مبيِّناً:

> يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: مَا كَانَ يَنْبَغِي لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا، يَقُولُ: أَنْ يَدْعُوا بِالْمَغْفِرَةِ لِلْمُشْرِكِينَ، وَلَوْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُمْ أُولِي قُرْبَى، ذَوِي قَرَابَةٍ لَهُمْ. {مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [التوبة: ١١٣] يَقُولُ: مِنْ بَعْدِ مَا مَاتُوا عَلَى شِرْكِهِمْ بِاللَّهِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ

> قَدْ قَضَى أَنْ لَا يَغْفِرَ لِمُشْرِكٍ فَلَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَسْأَلُوا رَبَّهُمْ أَنْ يَفْعَلَ مَا قَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ فَإِنْ قَالُوا: فَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ قَدِ اسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ، وَهُوَ مُشْرِكٌ، فَلَمْ يَكُنِ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا لِمَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ {فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ} [التوبة: ١١٤] وَعَلِمَ أَنَّهُ لِلَّهِ عَدُوٌّ خَلَّاهُ وَتَرَكَ الِاسْتِغْفَارَ لَهُ، وَآثَرَ اللَّهَ وَأَمْرَهُ عَلَيْهِ، فَتَبَرَّأَ مِنْهُ حِينَ تَبَيَّنَ لَهُ أَمْرُهُ

وسبق ذكر قصَّة وفاةِ أبي طالب، وفيها كما عند ابن أبي حاتم في التفسير:

> أَيْ عَمِّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةٌ أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ «فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ قَالَ: فَكَانَ آخِرُ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ أَنْ قَالَ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ» فَنَزَلَتْ: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى} [التوبة: ١١٣]

وفي تفسير عبد الرزَّاق الصنعاني رحمه الله تعالى ورَحِمَ الأئمَّة أجْمعينَ، آمين:

> قَالَ: مَعْمَرٌ، وَقَالَ قَتَادَةُ: «تَبَيَّنَ لَهُ حِينَ مَاتَ وَعَلِمَ أَنَّ التَّوْبَةَ قَدِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ»

وموافِقاً له الرواية عند الطبري:

> عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} [التوبة: ١١٣] «وَكَانُوا يَسْتَغْفِرُونَ لَهُمْ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فَلَمَّا نَزَلَتْ أَمْسَكُوا عَنْ الِاسْتِغْفَارِ وَلَمْ يَنْتَهُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْأَحْيَاءِ حَتَّى يَمُوتُوا ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ} [التوبة: ١١٤] يَعْنِي: اسْتَغْفَرَ لَهُ مَا كَانَ حَيًّا فَلَمَّا مَاتَ أَمْسَكَ عَنْ الِاسْتِغْفَارِ»

وفي الآية حكم عامٌّ، وذُكِرَ فيها لِبيان هذا الحكمِ لفظُ المشركين، وهذا يَشمل جميعَ المشركين، الجاهلين والمعاندين.

ولذلك لم يذكرْ أحدٌ مِن أهل العلم تفريقاً بينَ مشركٍ ومشركٍ في هذا الأمر وأنّه يجوز الاستغفار لبعض المشركين دون بعض.

والمقصود في الآية بيان أنّ الاستغفار يحرُم بعد الموت على الكفر، لذا فسّر أهل العلم التبيُّن المذكور في الآية بالموت لأنّ التكليف ينقطع به.

وقال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧)**﴾ (الأنعام)

لا شكّ أنّ لفظ المشركين في هذه الآية يشمل جميع المشركين، كما في الآية السابقة. فالله تعالى ذكر عِلّة كونِ هؤلاء مشركينَ وهي اتّخاذُهم شركاءَ مِن دونِه.

﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦)**﴾ (التوبة)

وهنا يسمِّيهم الله تعالى أيضاً مشركين. مَهْما علِموا مِن حقيقة الإسلام أم جهِلوا فذلك لا يغيِّر مِن اتّصافهم بالشِّرك شيئاً – وإن تلاعَب بعض الناس بمثل هذه الآية بما يخالف ظاهرَها ويناقض الكتاب والسنّة وما عليه سلف هذه الأمّة في فهمهم للقرآن من وجوه.

﴿**أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)**﴾ (الأعراف)

هذه الآية واضحةٌ جدّاً كذلك، وفيها ذكر الفعل ﴿**أَشْرَكَ**﴾ لا اسم الفاعل، فلا شكّ أنّ المراد هو مَن يفعل الشِّرك. فكيف يمكن أن يُدَّعَى أنّ مَن ذُكِر في الآية يمكن أن يكون مسلماً؟ إلّا أنّ ذلك يمكن على قول مَن يجعل بعضهم مسلمين بحجَّة الجهل والانتساب، مع أنّهم يَدخلون في قول الله تعالى المذكور لأنّهم فاعلون للشرك على كلّ حال.

فالآيةُ كغيرِها تشمل المشركين بِعِلَّةِ فعلِهم الذي هو الشِّرك. فيُسأل المخالف: **(إذا كان هذا الشَّخص جاهلاً فهل فعَل الشِّركَ أم لاً؟)**، فإن فعَله فإنّه داخل في الآية. وعلى المُنصِف المريدِ لِلحقِّ أن يسألَ نفسَه: هل قال أحدٌ مِن علماء السَّلَفِ شيئاً يخالفُ هذا عند كلامِهم على هذه الآيات؟

ومثله يقال في الآيتين الآتيتين.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوص (١٠٩)﴾ (هود)

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)﴾ (يوسف)

وهناك آياتٌ كثيرة في القرآن مِن هذا الباب، جاء ذكر الشرك ووصف المشركين فيها وصفاً عامّاً ولم يُستَثنَ مِن هذا الوصفِ العامِّ شيءٌ، ولكن أكتفِي بِما ذُكِرَ هاهنا ومِن قبل في هذا الكتاب.

وبهذا تمَّ ما رأيتَ أن أذكره في بيانِ معنى الإسلام بأدلَّتِهِ مِن الكتاب والسنَّة.

... والله تعالى أعلم وأحكم، والحمد لله ربِّ العالمين أوّلاً وآخراً.

الخاتِمَة

تمَّ بفضلِ اللهِ تعالى ما أردتُ ذكرَه في بيانِ مَعنى الإسلام مِن الكتابِ والسُّنَّةِ وأقوالِ السَّلَفِ الصالح. وبما سبَق مِن الأدلَّة تجلَّى أنَّ الإسلام ينبَنِي على توحيد العبادة وأنَّ مَن لم يحقِّق هذا التَّوحيدَ فلا يمكن أن يكون مسلماً بأيِّ حالٍ مِن الأحوال.

وكما ذُكِرَ في مقدِّمةِ الكتاب، فما تفرَّع عن هذا الأصل مِن المسائلِ على تفاوتِ أهميَّتِها يَنبَغي أن يُفرَد بِالبَحثِ على النَّحوِ الذي بُحِثَ عليه هذا الأصلُ هاهنا.

تمَّ بفضلِ اللهِ ومنِّه وكرَمه

وأقول في كلِّ ما سبق: الله أعلم وأحكم.

أسأل الله أن يجعل هذا الكتاب نافعاً للمسلمين، وأن يجعل نيّاتِنا خالصةً لوجهه الكريم.

اللَّهُمَّ اغفر لي وللمؤمنين والمؤنات، الأحياء منهم والأموات، وارحم اللَّهُمَّ علماءَ المسلمين، أئمَّة السنّة، الذين نقلوا إلينا بِعَونِك وحِفظِك هذا الدِّين،

آمين.

وصلّى الله على نبيِّنا محمّدٍ وآلِه وصحْبِه ومَن والاه،

والحمدُ للهِ ربِّ العالَمين.



فِهْرِسُ أَسْماءِ المُصَنِّفِينَ المَنْقُولِ عَنْهُم

مُرَتَّبَةً عَلَى سَنَةِ الوَفاة

١٥٠	**مُقاتِلُ بْنُ سلَيمان** الأزدي البلخي
١٥١	**محمّد بنُ إسحاق**
١٨١	**عبد الله بن المبارك**، أبو عبد الرحمن المروزي
٢٠٠	**يَحيَى بْنُ سلَّام** بنِ أبي ثعلبة
٢٠٤	**الشَّافعي**، **محمَّد بن إدريسَ** المطلبي القرشي المكي
٢٠٤	**أبو داودَ الطَّيالِسي**، سليمانُ بنُ داودَ البصرى
٢١١	**عبد الرزَّاق الصنعاني**، أبو بكر عبد الرزاق بن همام اليماني
٢١٣	**ابن هشام**، أبو محمد عبدُ الملك
٢٢٤	**أبو عُبيد القاسمُ بنُ سلاّم** الهرَوي البغدادي
٢٣٥	**أبو بكر ابن أبي شيبة**، عبد الله بن محمد
٢٤١	**أحمدُ بن محمّد بن حنبل**، أبو عبد الله الشيباني
٢٥٥	**الدّارمي**، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن
٢٥٦	**البخاري**، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل
٢٦١	**مسلم بن الحجّاج**، أبو الحسين القشيري النيسابوري
٢٧٣	**ابن ماجه**، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني
٢٧٥	**أبو داودَ**، سليمانُ بن الأشْعَث السِّجِسْتاني
٢٧٩	**الترمذي**، أبو عيسى محمّدُ بن عيسى
٢٨٧	**ابن أبي عاصم**، أبو بكر أحمد بن عمرو بن الضحاك الشيباني

٢٩٢	**أبو بكر البَزَّار**، أحمد بن عمرو
٢٩٤	**محمَّد بنُ نصرٍ المرْوَزِيُّ**، أبو عبد الله
٣٠٣	**النَّسائي**، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب
٣١٠	**الطَّبري**، أبو جعفر محمد بن جرير
٣١١	**أبو بكر الخَلَّال** البغدادي الحنبلي
٣١٦	**أبو عَوانة** يَعقُوبُ بنُ إسحَاقَ الإسفرَايِيني
٣٢٧	**ابن أبي حاتم الرَّازي**، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد
٣٦٠	**أبو بكرٍ الآجُرِّي**، محمد بن الحسين البغدادي
٣٦٠	**أبو القاسم الطَّبَراني**
٣٨١	**أَبُو القَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ** بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ مُحَمَّدٍ الغَافِقِيُّ، **الجَوْهَرِيُّ** المالِكي
٣٩٥	**ابنُ مَنْدَه**، أبو عبد الله محمَّدُ بنُ إسحاقَ بنِ مَنْدَه
٤١٨	**اللَّالَكائي**، أبو القاسم هِبَةُ اللهِ اللَّالَكائي الطَّبَري
٤٣٠	**أبو نعيم الأصبهاني**، أحمد بن عبد الله
٥٣٥	**أبو القاسم الأصبهاني**، إسماعيل بن محمد

فِهْرِسُ المَصَادِر

مُرَتَّبَةً عَلَى سَنَةِ وَفاةِ المُؤَلِّف

اقتَصَرتُ عِنْدَ النَّقَلِ مِن المصادرِ في هذا الكتاب – تَسهيلاً لِلقارئ والباحثِ – على إصداراتِ (المكتبة الشاملة)، لِيتَمكَّنَ القارئُ مِن مُراجعةِ النصوص في مصادرِها بِسُهولةٍ، ولمْ أتصرَّفْ في النصوص المنْقولة إلّا لِتصحيحِ خطأٍ ظاهرٍ.

ولِما ذُكِرَ اكتَفَيتُ بِذكْرِ اسمِ المُؤلِّف ومُؤلَّفاتِهِ التي نَقَلتُ مِنها في هذا الكتاب، دُونَ تفاصيلِ الإصدارِ والطَّبعةِ والدَّار ونحوِ ذلك. فمَن أرادَ أن يعرفَ ذلك فلَيسَ عليْه إلَّا أن يرجعَ إلى المكتَبةِ المذكورة.

---

١٥٠ مُقاتِلُ بْنُ سلَيمان الأزدي البلخى
- تفسيرُ مُقاتِل بْنِ سلَيمان

١٥١ محمّد بنُ إسحاق
- سيرةُ ابنِ إسحاق = كتاب السِيَرِ والمَغَازِي

١٨١ عبد الله بن المبارك، أبو عبد الرحمن المروزي
- الزُهْدُ والرَقائِق

٢٠٠ يَحيَى بْنُ سلَّام بنِ أبي ثعلبة

• تفسيرُ يَحيَى بْن سلَّام

٢٠٤ الشَّافعي، محمَّد بن إدريسَ المطلبي القرشي المكي

• كتابُ الأُمّ

٢٠٤ أبو داودَ الطَّيالِسي، سليمانُ بنُ داودَ البصرى

• مسندُ أبي داودَ الطيالسي

٢١١ عبد الرزَّاق الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام اليماني

• تفسيرُ عبدِ الرزَّاق

• مُصنَّف عبدِ الرزَّاق

٢١٣ ابن هشام، أبو محمد عبدُ الملك

• السيرةُ النَّبويَّة لابنِ هشام

٢٢٤ أبو عُبيد القاسمُ بنُ سلاّم الهَرَوي البغدادي

• كتاب الإيمانِ ومعالمِه، وسننِه، واستكمالِه، ودرَجاتِه

٢٣٥ أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد

• مسندُ ابن أبي شَيْبَة

٢٤١ أحمدُ بن محمّد بن حنبل، أبو عبد الله الشيباني

• مسندُ أحمدَ بن حنبل

• فَضائِلُ الصَّحابة

٢٥٥ الدّارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن

• مسند الدّارمي (المعروف بِسُنَنِ الدّارمي)

٢٥٦ البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل

- صحيح البخاري = الجامع المسند الصَّحيح المُختصَر من أمور رسول الله ﷺ وسننِه وأيّامِه
- خَلقُ أفعالِ العِباد
- الأدَبُ المُفرَد

٢٦١ مسلم بن الحجاج، أبو الحسين القشيري النيسابوري

- صحيحُ مسلم = المسند الصَّحيحُ المُختَصَرُ بِنقْلِ العَدْل عن العدل إلى رسول الله ﷺ

٢٧٣ ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني

- سننُ ابنِ ماجَه

٢٧٥ أبو داودَ سليمانُ بن الأشْعَث السِّجِسْتاني

- سننُ أبي داود

٢٧٩ التِرمذي، أبو عيسى محمّد بن عيسى

- سننُ التِرمذي

٢٨٧ ابن أبي عاصم، أبو بكر أحمد بن عمرو بن الضحاك الشيباني

- السُنَّةُ لِابنِ أبي عاصم
- الآحادُ والمَثاني

٢٩٢ أبو بكر البزَّار، أحمد بن عمرو

- مسندُ البزَّار

٢٩٤ محمَّد بنُ نصرٍ المَرْوَزِيُّ، أبو عبد الله
- تَعظيمُ قَدْرِ الصَّلاة

٣٠٣ النَّسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب
- السُّنَنُ الصُّغْرى = المجتبى من السنن
- السنن الكُبْرى
- عملُ اليومِ واللَّيلة

٣١٠ الطَّبري، أبو جعفر محمد بن جرير
- تفسيرُ الطَّبري = جامعُ البيان عن تأويلِ آيِ القرآن

٣١١ أبو بكر الخَلَّال البغدادي الحنبلي
- السُنَّة لِلخَلَّال

٣١٦ أبو عَوانة يَعقُوبُ بنُ إسحَاقَ الإسفرَايِيني
- مُستَخرَجُ أبي عوانة = المسنَد الصَّحيح المُخَرّج عَلى صَحِيح مُسلم

٣٢٧ ابن أبي حاتم الرَّازي، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد
- تفسيرُ القرآن العظيم لابنِ أبي حاتم الرازي

٣٦٠ أبو بكرٍ الآجُرِّي، محمد بن الحسين البغدادي
- الشَّريعةُ للآجُرِّي
- أربعونَ حديثاً للآجُرِّي

٣٦٠ أبو القاسم الطَّبَراني
- المعجم الكبير والأوسط والصغير
- كتاب الدُّعاء للطبراني

٣٨١ أَبُو القَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ مُحَمَّدٍ الغَافِقِيُّ، الجَوْهَرِيُّ المالِكي

• مسندُ الموطَّأ

٣٩٥ ابنُ مَنْدَه، أبو عبد الله محمَّدُ بنُ إسحاقَ بنِ مَنْدَه

• كتابُ الإيمانِ لابنِ منده

٤١٨ اللَّالَكائي، أبو القاسم هِبَةُ اللهِ اللَّالَكائي الطَّبَري

• شرح أصول اعتقاد أهل السُّنة والجماعة

٤٣٠ أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله

• حِلْيَةُ الأولياء وطَبَقاتُ الأصفِياء

٥٣٥ أبو القاسم الأصبهاني، إسماعيل بن محمد

• الحُجَّة فِي بَيانِ المَحَجَّة